روايات عالمية للجيب 69

لورد چيم

Looloo
www.dvd4arab.com



تأليـــــف : چوزيـف كونـــراد
ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



لقاؤنا الثانى مع (جوزيف كونراد Joseph Conrad) الذى قدمنا له من قبل فى هذه السلسلة روايته الصعبة المملة نوعًا (قلب الظلام). وقد قدمناها برغم كل شىء لأنها بالغة الأهمية وتمثل جزءًا حميمًا من ثقافة قارئ الإنجليزية. هذه المرة نلتقى مع قصته الشهيرة الأخرى (لورد جيم) وهى أكثر تشويقًا لحسن الحظ.

قلنا من قبل إن الرجل أديب مهم من أدباء الإنجليزية برغم أنه بولندى الأصل، وكان يتكلم الإنجليزية بصعوبة بالغة، مما كان يرهقه بشدة فى الكتابة.

ولد عام 1857 فى منطقة بين روسيا وبولندا يطلقون عليها (أوكرانيا البولندية) لأسرة من طبقة نبيلة. لأسباب سياسية نفيت الأسرة من بولندا، وتُوفِّىَ الأب ثم الأم ليجد (جوزيف) نفسه تحت رعاية عمه.

سافر الصبى إلى فرنسا عام 1974 حيث تعلم هناك الفرنسية وأصول الملاحة فى البحر ، وهناك كون صداقات مع مجموعة من الأدباء الفرنسيين البوهيميين . لهذا ظل طيلة حياته مزيجًا فريدًا من بحار وفنان .

فى العام 1978 يرتحل الفتى إلى إنجلترا ليعمل ضابطًا على السفن البريطانية ، وقدر له أن يظل هناك عشرين عامًا من حياته .

قرر الفتى أن يكتب .. وكان أول ما كتبه باللغة الإنجليزية وهذا غريب لأن الإنجليزية ثالث لغة تعلمها فى حياته (بعد البولندية والفرنسية) . سافر إلى الكونغو عام 1890 فرأى كيف يعامل البلجيكيون العنصريون القساة سكان البلاد ، وعاد ليكتب (قلب الظلام) . إن أسلوب الرجل معقد وغامض لدرجة أن هناك نقادًا غربيين اعتبروا القصة تمجيدًا للاستعمار الغربى لا هجومًا عليه !

بعد وفاة عمه الثرى ظفر بإرث كبير مكنه من أن يتفرغ للكتابة طيلة حياته . وكانت معاناته و(مصارعته) للغة الإنجليزية سببًا لكونه مشغولاً على الدوام ، ولم يكن لديه وقت للعلاقات الاجتماعية والأسرية .

تُوفِّىَ عام 1924 بنوبة قلبية وهو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وترك لنا 13 رواية و28 قصة قصيرة .

غالبًا ما يكون الراوى فى قصصه بحارًا متقاعدًا اسمه (مارلو) .. فى قصة (لورد جيم 1900) التى هى بين يديك يحاول بحار أن يصحح خطأ ارتكبه فى شبابه يتسم بالجبن مع سفينة تقل بعض الحجاج المسلمين . والقصة مأخوذة عن حادثة حقيقية للسفينة (جِدَّة) التى أحدثت صخبًا فى ذلك العصر ، وقد قدمتها السينما العالمية عام 1965 فى فيلم جميل بالاسم نفسه وقام ببطولته (بيتر أوتول) وأخرجه (ريتشارد بروكس) . القصة برغم قوتها لا تخلو من ذات التعالى العنصرى الذى كان رمز المرحلة : الرجل الأبيض الذى جاء ليُهْدِى الحكمة والنبل للوطنيين الطيبين العاجزين عن حماية أنفسهم . إن لورد جيم طرزان آخر لكنه يقدم بشكل ثقافى عالى المحتوى الأدبى .

فى قصة (العميل السرى 1907) يحكى كونراد عن فوضوى يعيش فى لندن . وفى قصة (تحت عين غربية 1915) يحكى عن تسلط روسيا فى القرن التاسع عشر . أما عن قصة (قلب الظلام) التى كتبها عام 1902 فيعرف من قرءوها أنها تتحدث عن رحلة مخيفة عبر نهر أفريقى لمقابلة رجل غربى رهيب يعيش فى الأحراش ويدعى (كورتز) ، وهذا الرجل أحاط نفسه بالغموض لدرجة أن بعض مواطنيه أوشكوا على تأليهه .

(جوزيف كونراد) أديب مهم لابد أن يُقرأ ، وإن كان مرهقًا إلى حد ما ، وقد حاولت أن أجعله أسهل فى الرواية الأولى فلم أوفق كثيرًا ، لكنى حاولت بجدية أكثر فى هذه الرواية ، وأعتقد أنها ستروق لك .

د . أحمد خالد

الفصل الأول

كان طويل القامة قوى البنيان منحنى الكتفين قليلاً ، يعطى طابع الثور المنقض . كان صوته عميقًا عاليًا وكان متأنقًا فى ثيابه البيضاء كلها ، محبوبًا فى الموانى الشرقية حيث كان يعمل فى نقل المؤن للسفن .

إنه مخلص لقبطان سفينته ، متنبه كابن عطوف ، يتمتع بصبر أيوب . مهنته مهنة جميلة لكنها ليست سهلة ، ولهذا تجد أن من يمارسون مهنته قليلون .. خاصة إذا كان صاحب المهنة قد تربى فى البحر فإنه يساوى ثقله ذهبًا . لهذا كان (جيم) ينال أعلى الأجور . لكنه كان قد قرر أن يترك العمل فجأة ليعمل فى مكان آخر ، وكان رؤساؤه يرونه يبتعد فيصيحون (الأحمق الغبى !) ..

بالنسبة للبحارة كان هو (جيم) .. لا شىء غير هذا .. بالطبع كان له اسم ثان لكنه كان مصرًا على عدم ذكره . لم يكن هذا الغموض يهدف لإخفاء شخصيته بل حقيقته .. وكان يرحل فورًا بمجرد أن تحدث ثقوب فى إطار الغموض الذى يحيط به نفسه . غالبًا كان يتجه نحو الشرق أكثر ..

كان ينفى نفسه نحو الشمس باستمرار ، والحقيقة كانت تتبعه بشكل عابر لكن لا مفر منه . لهذا خلال أعوام صار معروفًا فى بومباى وكالكتا ورانجون وبينانج ، وهناك فى الملايو أطلقوا عليه (توان جيم) وهو ما يشبه (لورد جيم) فى الإنجليزية .

جاء فى الأصل من بيت قس وكذلك نشأ كثيرون من خيرة قباطنة السفن التجارية . كان واحدًا بين خمسة أبناء ، وقد شعر بحنين للبحر بعد ما قرأ بعض القصص فى إحدى عطلات الصيف . وتم إرساله لسفينة مخصصة لتدريب ضباط البحرية التجارية .

هناك كان محبوبًا سريع التعلم ، وقد راح يُمَنِّى نفسه بحياة جميلة فى عالم المغامرات . كان يرى نفسه ينقذ الناس من سفينة غارقة ويكافح الأعاصير .. أحيانًا يرى نفسه حافيًا شبه عار على جزيرة مهجورة .. يواجه المتوحشين فى المناطق الاستوائية ويواجه القراصنة فى عُرْضِ البحر .. مخلصًا دومًا لواجبه كبطل من أبطال الكتب .

فى ذلك اليوم العاصف اصطدمت سفينة تجارية بمركب ذات صاريين عند المرسى ، وهرع الصبية يراقبون المشهد وهم يصرخون : « تصادم ! »

شعر جيم بمن يمسك كتفه ومن يقول له :

- « تأخرت أيها الشاب .. »

كان هذا قبطان السفينة ، فقد كان جيم على أهبة الوثب فتوقف وقد بدا ألم الهزيمة فى عينيه . كان يؤمن أنه لا يخاف العواصف .. إنه قادر على مواجهة كل شىء أفضل من أى واحد آخر . كان مؤمنًا بكفاءته وقدراته بلا حد .

★ ★ ★

بعد عامين من التدريب ذهب للبحر ، وهناك زار أماكن عرفها من قبل جيدًا فى مخيلته . ووجدها جدبة من المغامرة بشكل غريب . قام برحلات عديدة وذاق الرتابة الساحرة لأن تكون بين السماء والبحر ، وذاق نقد الرجال له ، ومرارة أن تعمل من أجل لقمة عيشك .. لم يكن بوسعه التراجع لأنه لا يوجد شىء مغر يستعبدك ويحررك مثل الحياة فى البحر . كان مهذبًا يعرف واجبه جيدًا .. وفى سن صغيرة جدًّا صار كبير ضباط سفينة ، لكنه لم يمر بالتجارب التى تختبر معدن الرجال وثبات أعصابهم وحقيقة قدرتهم على التحمل . وتكشف المرء ليس أمام رفاقه فقط بل أمام نفسه .

كاد يفقد حياته ذات مرة عندما هوت صارية عليه ، وقضى فترة طويلة فى الفراش ، ثم عندما رست السفينة على المرفأ الشرقى ذهب إلى المستشفى .. اضطروا لتركه لأن نقاهته استغرقت وقتًا ..

لم يكن معه سوى مريضين فى غرفة البيض .. أحدهما ضابط محاسبة على سفينة حربية ، والآخر موثق عقود سكك حديدية من محافظة مجاورة مصاب بمرض استوائى غامض ، يؤمن أن طبيبه حمار ، ويتعاطى سرًا دواء خاصًا يجلبه له خادمه (التاميل) المخلص .

كانوا يتبادلون الذكريات ويلعبون الورق ويقضون اليوم فى مناماتهم مسترخين . من النافذة تهب ريح شرقية محملة بالعطر .. تحمل وعدًا بالراحة .. السلام الأبدى لسماء الشرق ..

ما إن استطاع جيم المشى بلا عكازين حتى قصد المدينة يبحث عن طريقة تعيده للوطن . لم يجد شيئًا لكنه اختلط كثيرًا برجال البحر مثله . منهم الحالمون الذين لا يكفون عن وضع الخطط المستقبلية ، والذين لا توجد حقيقة أكيدة فى حياتهم سوى موتهم . الباقون كانوا مثله جاءوا هنا بحادث ما .. وقد اعتادوا سلام الشرق وراحوا يَخْشَوْنَ العودة للوطن للخدمة من جديد ..

فى كلامهم وأفعالهم تجد تلك البقعة الرخوة : الرغبة فى حياة مسترخية وسط الوجود .

بدأ جيم يحب وجود هؤلاء القوم ، ومع الوقت نبذ فكرة العودة للوطن ، ووجد لنفسه وظيفة كضابط على السفينة (باتنا) .

(باتنا) كانت سفينة بخارية عتيقة كالجبال رشيقة ككلب سلوقى وقد التهمها الصدأ كخزان ماء ..

يملكها رجل صينى ويستأجرها عربى .. ويقودها ألمانى من (نيو ساوث ويلز) يمقت بلده بعنف ، لكنه يتوحش مع كل الذين لا يخشاهم .. له شارب قرمزى وأنف أحمر ..

تم دهان السفينة من الخارج وغسلها من الداخل ، ثم استقلها 800 حاج صعدوا على ظهرها فوق ثلاثة ألواح خشبية ، وكلهم إيمان وأمل فى دخول الجنة .. تضرب أقدامهم الحافية الأرض بلا كلمة أو نظرة للوراء . وسرعان ما ملئوا السفينة كأنهم الماء يملأ خزانًا .. يرتفعون فى صمت نحو الحافة .

ثمانمائة حاج كلهم أمل وإيمان .. من الشمال والجنوب .. عبروا الغابات والأنهار وأبحروا من جزيرة لجزيرة .. تركوا

قراهم وغاباتهم وحماية حكامهم وفقرهم وذكريات شبابهم وقبور آبائهم ..

جاءوا شعثًا غبرًا .. الشيوخ الضعفاء جاءوا وهم يوقنون أنهم لن يعودوا .. ثمة أطفال بعيون لا تخاف مليئة بالفضول . نساء يرتدين الأسمال يحملن أطفالهن النيام ..

قال الألمانى لضابطه الجديد مشيرًا إلى الركاب :

ـ « انظر لهذه الأبقار .. »

جاء قائد المجموعة أخيرًا وهو عربى وسيم جاد الملامح ، بثيابه البيضاء وعمامته العالية . ثم جاء مجموعة من الخدم يحملون متاعه . وبدأت (باتنا) تبتعد عن رصيف الميناء .

دارت نصف دورة فى ظل جبل ثم عبرت صخور الخليج التى تفور المياه عليها . ووقف العربى يتلو دعاء السفر . عبرت السفينة البوغاز وقطعت الخليج ثم بدأت رحلتها نحو البحر الأحمر تحت سماء صافية . ومن تحتها كان البحر أزرق عميقًا بلا حركة ولا تجعيدة واحدة كأنه ميت . وتصاعد الدخان الأسود للسماء بينما خلفت السفينة وراءها شريطًا أبيض من الرغوة تلاشى فى الحال .

فى كل يوم تشرق الشمس من البقعة نفسها لتحرق المسافرين ثم تغوص فى غموض فى البحر ليلة تلو ليلة . وكان الخمسة البيض الذين يقودون السفينة يعملون بمعزل عن حمولتها البشرية .

وكذا دارت الأيام حارة ثقيلة تغيب يومًا بعد يوم فى الماضى .. والسفينة تغوص فى اتساع براق لا نهاية له تحرقها الشمس التى لا تترفق . لذا كان الليل بالنسبة لها رحمة .

الفصل الثانى

بدا بحر العرب ناعمًا كأنه لوح من الثلج يمتد نحو الأفق المظلم . وعلى جانبى (باتنا) تعالت المياه تفور ثم تلتقى من جديد بعد ما ترحل السفينة .

كان جيم على منصة الربان يقف وقد سحره هذا الهدوء والسلام على وجه الطبيعة ، كأنه السلام على وجه أم . وتحته كان الحجاج الذين استسلموا لحكمة الرجال البيض وسفينتهم المعدنية ، ينامون على الحصر وألواح الخشب العارية وكل ركن مظلم وقد أراحوا الرءوس على أكياس صغيرة فيها متاعهم كله ، ودفنوا وجوههم فى سواعدهم . إنه النوم شقيق الموت حيث يصير الجميع متساوين .

رجل عجوز ينام على سجادة الصلاة وقد وضع يدًا على كل أذن من أذنيه ، وامرأة مغطاة من قمة رأسها لأخمص قدمها تنام وطفل عار فى تجويف كل من ذراعيها . بينما تكومت الأمتعة فى كومة عالية لا يمكن أن تفهم حدودها ..

مشى جيم وصوت خطواته العالى يبدو كأن النجوم تردد صداه . عيناه تتفحصان الأفق كأنه يبحث عن المستحيل . كان الظل الوحيد فى البحر هو ظل الدخان الذى يتدفق من المدخنة . تمطى جيم حتى سمع مفاصله تقرقع ، وشعر بأنه لا يبالى بأى شىء يحدث له إلى نهاية حياته .

من حين لآخر يرمق الخارطة المثبتة بالدبابيس إلى منضدة ذات ثلاثة أرجل .. هناك خارطة تبين أعماق البحر وفوقها مسطرة متوازية وقد تم تحديد موضع الباخرة عند الظهر بصليب أسود صغير . وخط بالقلم الرصاص يحدد مسار السفينة .. رحلة الأرواح إلى الأرض المقدسة .. حلم الخلاص .. والخلود فى الجنة .

كان يتساءل عن سبب ثبات السفينة وهدوء الرحلة ، وكان يحلم أحيانًا بأن يختبر رجولته .. لا يوجد خطر لا يقدر على مواجهته ..

دقت ساعته فأدرك أن موعد ورديته قد شارف على الانتهاء .. شعر برضا وإن تضايق لأنه سيفارق هذا البحر الهادئ الجميل .. كان النعاس يزحف عليه ، وشعر بلذة فى كل طرف من أطرافه كأن دمه قد صار لبنًا دافئًا .

جاء صديقه بلا ضوضاء وهو يلبس منامته وقد انفتحت سترته . وجهه أحمر نصف متيقظ وعينه الوحيدة المفتوحة زجاجية غبية . راح يهرش ضلوعه وقد بدا مقززًا .. لحم صدره يلمع كأن دهنه قد سال من الحر .. سوف يذكر جيم هذا الشكل البدين طويلاً باعتباره يجسد كل شىء دنىء فى العالم الذى نحبه ..

هوت رقاقة القمر الأخيرة لتضيع فى سواد المياه .. والأبدية فى السماء اقتربت من الأرض ، والسفينة تتحرك بنعومة تفوق قدرة البشر على الإحساس ، كأنها كوكب يدور حول الشمس بكل ما عليه ..

قال الرجل :

- « لفظة (حار) لا تصلح للحال فى قاع السفينة .. »

ابتسم جيم ولم يعلق . بينما أدار الرجل ظهره له .. إنه المهندس الثانى للسفينة يواصل شكواه . هنا ظهر القبطان الألمانى من مكان ما غاضبًا وصاح فى المهندس :

- « من أين جئت بالشراب ؟ »

ترنح المهندس وتمسك بالحاجز بكلتا يديه وقال :

- « شراب ؟.. ليس منك يا كابتن .. أنت أكثر بخلاً من ذلك .. أنتم معشر الألمان تفضلون ترك رجل يموت على منحه جرعة من (الشنابس) .. »

من حنجرة القبطان تصاعدت ضوضاء كان بوسعك أن تميز فيها بكثرة لفظة شفاين (خنزير بالألمانية) تتطاير كريشة فى النسيم . كان هو والمهندس صديقين حميمين لأعوام لا بأس بها ، يخدمان ذات الرجل الصينى ذى الضفيرة والعوينات الرفيعة وبرغم هذا لم يكونا متناسبين .. أحدهما حقود رخو غبى العينين

مكتنز ، والآخر نحيل له رأس حصان وصدغان غائران .. كانت سفينته قد غرقت منذ عشرين عامًا قرب ساحل شرقى لعله الصين ونجا بشبابه . ولم يحاول إصلاح سفينته بل ظل هنا للأبد وكان يحب أن يعرف الغرباء أنه قديم فى هذه البلاد . يجوب سطح السفينة وهو يدخن التبغ المخلوط فى غليون طويل ، وهو شارد كمفكر غارق فى فكرة فلسفية عميقة .

كانت غضبة الألمانى عاتية متفجرة ، وقد راح جيم يراقب المشهد فى استمتاع وإن نفد صبره بانتظار لحظة النزول لقمرته . هؤلاء القوم لا يمتون لعوالم البطولة بصلة لكنهم أناس طيبون .. يحتك بهم ويعيش معهم لكنه يختلف .

كان المهندس يقول :

ـ « أنا ثمل ؟.. لا يا كابتن .. لا .. لا .. أنا لا أسكر بسهولة ، وهذه السفينة ليس عليها نوع الخمر الذى يمكن أن يؤثر فِىَّ .. يمكن أن أشرب نارًا سائلة وبرغم هذا لا أهتز .. ولا أخشى ما يمكن أن تفعله .. »

وتخلى عن الحاجز ليأتى بيده حركات تدل على مدى بسالته وشجاعته .. وراح يتقدم للأمام والخلف ليكسب كلماته تأثيرًا .

وفجأة هوى برأسه فى الماء كأن هناك من ضربه من الخلف . فقط قال :

ـ « تبًا ! »

مرت لحظة صمت ثم هرع الرجلان ينظران فوق الحاجز وهما مذهولان .. ينظران لصفحة الماء ثم رفعا رأسيهما نحو النجوم .

ماذا حدث ؟.. استمر صوت المحركات .. هل توقفت الأرض عن الدوران ؟ . لقد غاص المهندس وتوارى بينما هدير خفيف كأنه رعد واهن أو رعد بعيد جدًا يدوى ، واهتزت السفينة للحظة .

المقدمة ارتفعت قليلاً ثم عادت تشق البحر إلى نصفين .. وتوقف الاهتزاز وصوت الرعد الخافت ..

* * *

الفصل الثالث

بعد شهر من هذا حاول (جيم) فى رده على الأسئلة أن يحكى تجربته بصدق ، فقال عن السفينة :

ـ « لقد واصلت طريقها بنعومة كثعبان يلتف حول عصا .. »

كان التحقيق يجرى فى المحكمة فى مرفأ شرقى . كان يقف محمر الخدين فى قفص الشهود . عشرات العيون تراقبه كأن هؤلاء القوم قد صاروا عبيدًا طائعين لصوته . صوته العالى جدًا كأنه الصوت الوحيد المسموع فى العالم .. أهالى البلاد وبعض الأوروبيين فى سترات ضيقة بيضاء كجلودهم ، وقبعاتهم على أفخاذهم .

فى الخارج كانت الشمس حارقة بينما فى الداخل تتحرك المروحة العملاقة فتجعلك ترتجف . ووجه القاضى الحليق عديم التعبير ينظر له . يريدون الحقائق .. الحقائق !.. كأن الحقائق تفسر أى شىء .

ـ « قلت إنكم اصطدمتم بشىء سابح .. ربما حطام يحمله الماء .. طلب منك رئيسك أن تتحرك للمقدمة وترى إن كان هناك أى ضرر .. هل توقعت هذا من قوة الارتطام ؟ »

قال جيم :

ـ « قيل لى ألا أحدث صخبًا حتى لا أسبب ذعرًا .. بدا لى هذا معقولاً .. حملت مصباحًا معى واتجهت للمقدمة . فتحت المخزن الأمامى فسمعت صوت تدفق ماء هناك .. لقد امتلأ المخزن بالماء لنصفه .. وعرفت أن هناك فجوة بالتأكيد تحت القاع .. »

قال مستشار القاضى :

ـ « نعم .. »

ـ « لم أفكر فى الخطر وقتها .. ربما ذهلت قليلاً لأن هذا حدث بطريقة سريعة مفاجئة .. عدت لأخبر القبطان فقابلت المهندس الأول يترنح أسفل الدرج ، وقال لى إنه يعتقد أنه هشم ذراعه .. لقد انزلق من فوق الدرج .. وصاح : رباه !.. الحاجز سوف يتهاوى خلال دقيقة وسوف تغرق السفينة اللعينة كثقل من الرصاص . وصعد فى الدرج وهو لا يكف عن الصراخ .. تبعته فرأيت القبطان يضربه على ظهره ثم وقف يكلمه فى غضب وبصوت خفيض .. أعتقد أنه كان يلومه على أنه لم يوقف المحركات بدلاً من عمل ضوضاء على ظهر السفينة .. هكذا جرى المهندس إلى غرفة الآلات .. »

الحقائق التى يطلبها هؤلاء حدثت واحتلت زمانًا ومكانًا .. فقط احتاجت إلى سفينة بخارية وزنها 1400 طن و27 دقيقة من

الزمن . أراد أن يسمحوا له بالكلام للأبد .. ليس من أجل الحقيقة بل من أجله هو كذلك ..

ـ « راح القبطان يتحرك من هنا لهناك على منصة القيادة .. بدا هادئًا لكنه تعثر عدة مرات .. واصطدم بى ذات مرة كأنه صار كفيفًا .. بدأ يتكلم فلم يعد لكلامه معنى .. وكنت أعيده لصوابه بأسئلة فيدرك ما هو فيه ويخجل .. »

بدأ فم الفتى يجف وشعر كأنه كان يأكل التراب ويشرب ماء البحر . وانتابته قشعريرة قوية . راح ينظر لرجل أبيض بين الحاضرين بدا له مألوفًا .. لابد أنه قابله من قبل فى الشارع لكنه لم يتبادل معه الكلام .. هو لم يتكلم منذ شهر .. لا جدوى من الكلام الآن .. لا جدوى من تذكره .. لكنه ينظر له نظرة واعية تختلف عن نظرة الآخرين النائمة ..

لكن مارلو لم ينس جيم قط .. تذكره مرارًا فيما بعد وفى كل أرجاء الأرض .. تذكره بالتفصيل ..

كم من جلسة مساء فى شرفة ، جلس فيها الجميع وفى كل يد سيجار مشتعل .. فلا يوجد ضوء إلا وهج اللهب يتزايد من وقت لآخر فينير هذا الوجه أو ذاك ، وتأتى سيرة لورد جيم فيصمت مارلو طويلاً ويتذكر ..

★ ★ ★

سيقول مارلو(*) :

ـ « نعم .. أنا حضرت التحقيق وحتى اليوم لا أعرف لماذا ذهبت .. أنا مضطر لتصديق أن لكل منا ملاكًا حارسًا لو قبلتم أن لكل منا شيطانًا كذلك .. أعرف أنه عندى .. الشيطان طبعًا .. لم ألقه لكنى أعتمد على الدليل الظرفى .. أراكم قد نعمتم بالعشاء الشهى والآن تثاقلتم واسترخيتم فى مقاعدكم قائلين : دع مارلو يتكلم .. ليكن .. سأفعل .. من الجميل أن نتكلم عن جيم فى أمسية كهذه ومعنا صندوق ملىء بالسيجار الممتاز ، وفى ليلة صافية مفعمة بضوء النجوم الذى يجعل أفضلنا ينسى أننا جئنا الدنيا لنعانى .. بعضنا هنا يشعر أن الحياة تشبه جلسة بعد العشاء .. سهلة .. خاوية .. ربما تتخللها تسلية بقصة خرافية سوف ننساها فورًا قبل أن نحكى النهاية لو كانت هناك نهاية .. يجب أن أقول إن عَيْنَىَّ التقيتا بعَيْنَيْهِ أثناء المحاكمة . كل شخص مهتم بالبحر كان هناك ؛ لأنها كانت قضية شهيرة .. قضية غامضة .. وأقول (غامضة) برغم أنها كانت فيها حقيقة عارية .. حقيقة عارية قبيحة كأية حقيقة .. منذ الصباح ألقى أناسًا يحكون قصة (الباتنا) ويسألون : هل عندك أحدث من هذه الأخبار ؟ كل شخص يتكلم عن هذه القصة ..

(*) مارلو هو نفسه من يحكى روايات كونراد الأخرى : (قلب الظلام) و(الشباب) و(الحظ) ..

كان صديقى (روثفيل) فى مكتب الملاحة يعطى بعض الدروس لطاهيه عندما سمع ضوضاء مكبوتة خلف ظهره .. التفت فرأى حسب ما قال شيئًا عملاقًا مستديرًا كأنه برميل كبير ملتفًا بقماش الفانلة المخطط، وقد استبدت به الدهشة للحظات لم يستوعب فيها أن هذا الشىء حى . وراح يتساءل عن السبب الذى جعله يأتى لمكتبه . كان المكان مزدحمًا بالعمال ومن يمسحون الأرضيات ومحركى الدفة وكل واحد منهم يوشك على تسلق ظهر صاحبه ليرى . فى هذا الوقت كان الشىء الوافد قد نزع قبعته وراح يتكلم مع (روثفيل) . لكن هذا كان مذعورًا حتى إنه لم يفهم حرفًا . بصعوبة فهم أن القضية تتعلق بالباتنا . تماسك وصاح :

ـ « توقف !.. لا أقدر على فهمك .. عليك بالذهاب إلى المشرف .. كابتن (إليوت) هو من تريد .. من هنا .. من هنا .. »

وهرع يشق الطريق وسط الزحام والرجل يتبعه . حتى بلغا المكتب الرئيس ففتح الباب بلا طرقات وقال :

ـ « هذا هو سيد (باتنا) يا سيدى .. ادخل يا قبطان(*) . »

(*) لا توجد قفزات فى سياق الترجمة لو خطر لك هذا ، لكن مونراد بأسلوبه الغامض المعتاد لا يعرض الحادث بالتفصيل .. بل يبقيه ليشرحه فيما بعد ، يكفى أن نعرف أن (باتنا) تعرضت لحادث وأن بحارتها هربوا بكل جبن تاركين الحجاج المسلمين على ظهرها لمصيرهم ، يضطر البحارة لسرد أكاذيب للسلطات لكن أمرهم يفتضح عندما يكتشفون أن الحجاج نجوا وشهدوا بما حدث .. يفر من استطاع الفرار من الطاقم أو يتمارض وهكذا يجد جيم نفسه المتورط الوحيد فى هذه الجريمة المشينة المخلة بالشرف ، خاصة السفينة يجب أن يكون آخر من يغادرها .

وأغلق الباب وهرع عائدًا إلى أوراقه وإن شعر بأن جو التوتر العام كان قويًا لدرجة أنه لم يعد يتذكر هجاء حروف اسمه . كان يشعر كأنه ألقى بإنسان لأسد جائع ، لأن الرجل كان بحاجة لشخص يلتهمه على الإفطار ، لكنه لم يأكله وإنما اكتفى بمضغه ثم بصقه ثانية .

كان مع الرجل الضخم ثلاثة شبان ضمن طاقم بحارته وقد وقفوا على مسافة . هناك شاب خبيث المظهر يعلق ذراعه فى جبيرة ورجل فارع بمعطف أزرق شبيه بعصا مكنسة وله شارب كث ، أما الثالث فشاب عريض المنكبين يداه فى جيبَىْ معطفه يدير ظهره للاثنين الآخرين . لا يتحرك على الإطلاق ويحملق فى الشمس ..

هذه كانت أول مرة أرى فيها (جيم) ..

هناك وقف حليق الوجه نظيف اليدين ، واعدًا أفضل من أى شاب سطعت عليه الشمس . ولأننى أعرف ما يعرفه فقد شعرت بغضب عليه كأنه ينتزع أسرارى بالخديعة . ليس مما يناسبه أن يبدو نقيًا هكذا .. وسألت نفسى : هل هو سمج ؟.. هل هو قاس ؟.. كأنه يوشك على الصفير بشفتيه . لم أهتم بالاثنين الآخرين كما تلاحظون ؛ لأن مظهرهما كان يناسب القصة التى سمعناها ، والتى توشك أن تكون موضوع تحقيق علنى .

كان القبطان الألمانى يقول :

ـ « أنا أعرف كل ركن فى المحيط الهادى أفضل من أى رجل إنجليزى .. أنا (خابير) فى أبيا وهونولولو .. »

كنت أعرف كيف أنه (خابير) فى هونولولو وأعرف نوعية معارفه هناك .. لن أعلن سرًا لو قلت : إننى (خابير) بهذه الأماكن كذلك .. هناك أوقات فى حياة المرء عليه أن يقنع نفسه فيها بأن أية صحبة طيبة . بل أعترف كذلك أن هؤلاء القوم برغم افتقارهم للأخلاق كانوا أحيانًا ممتعين أكثر من هؤلاء الذين يرغمك قومك على التعامل معهم .

ـ « أنتم معشر الإنجليز مجموعة من الأوغاد .. تصنعون من الحبة قبة لمجرد أننى لم أولد فى بلدكم اللعين .. »

وارتجف جسده العملاق فوق ساقيه الطويلتين الشبيهتين بعمودين وقال :

ـ « تريدون رخصة الملاحة ؟.. خذوها !.. لا أريد رخصة ملاحة منكم .. إننى لأقضى حاجتى عليها .. »

تقريبًا كانت حرارة كلماته توشك أن يتصاعد منها الدخان من قمة رأسه . كان الفضول يدفعنى للبقاء .. ورحت أراقب ذلك

الشاب الذى يبدو غير مهتم وهو ينظر للخارج كأنه سيتركنا ويذهب فى نزهة بمجرد أن يتأهب رفاقه . من القسوة أن ترى رجلاً اعتقل لا بسبب جريمة ولكن بسبب ضعف إجرامى . ضعف موجود فينا جميعًا ، كما أنك فى بعض بلاد الأرض تعرف أن كل حرش فيه ثعبان سام . كنت أتوقع أن يتلوى كخنفسة اخترقها دبوس ويبكى لكنه لم يفعل .. لحسن الحظ أنه لم يفعل لو كنت تفهم قصدى . لم أخف إعجابى بالشاب .. لقد جاء من المكان الصحيح .. كان واحدًا منا .. كان أقوى من الضعف أمام الذكرياتِ ألا تبًّا للذكريات !.. الذكريات أقرب لمتسكعين أو متسولين لا يكفون عن الدق على الباب الخلفى لعقلك .. وكل منهم يأخذ جزءًا منك يأخذ جزءًا من اليقين الذى عليك التمسك به لو أردت أن تعيش حياة سهلة وتموت فى سلام !

أنا عشت حياة طويلة مع البحر ، ورأيت صبية كثيرين تجلبهم أمهاتهم الباكيات كى يتعلموا حياة البحر .. رأيت آباء يقفون يراقبون رحيل السفينة ، ثم يرحلون متظاهرين باللامبالاة عارفين أنهم قدموا للبحر تضحيتهم الكبرى .. بعد هذا بأعوام قد أمشى على الميناء فأتلقى تلك الصفعة على ظهرى ، وأسمع من يقول لى :

- « هل تذكرنى يا سيدى ؟.. أنا تعلمت حياة البحر معك .. »

هذه الصفعة تجعلك تحترم حياتك وتشعر بأنها لم تكن هباء .. وهذا الشاب جعلنى أتذكر أشياء كهذه .

كان القبطان يزمجر بلا توقف ثم فجأة غادر المكتب وألقى بنفسه فى عربة يجرها حصان ، وسرعان ما غاب عن عيوننا .. ذاب تمامًا ولا أحسب أننى رأيته فى حياتى بعد ذلك ، فليس عسيرًا أن تميزه وأن تميز تابعه التاميل أبح الصوت .. غالبًا هو فى مكان ما من المحيط الهادى ..

فقط عندما انصرف هرع الشاب الذى يعلق ذراعه فى جبيرة يلاحقه مناديًا :

- « كابتن .. أردت أن أقول .. »

لكنه كان قد ابتعد ، أما الشاب الآخر فوقف بذات الوقفة المعتادة يرمق العربة المبتعدة ، ولم يتكلم ..

حدث هذا كله فى وقت أقصر مما تحتاج إليه لتحكيه ، وقد هرع الموظف البرتغالى الذى أرسله (آرشى) صديقى ليعنى

بالطاقم ينظر ذات اليمين وذات اليسار مذهولاً . وقد وجد صعوبة جمة فى السيطرة على الشاب الذى يعلق ذراعه فى جبيرة، والذى راح يصيح :

- « لن أتلقى التعليمات من هجين مثلك .. لو لم تكن برتغاليًا لفهمت أن المستشفى هو مكانى .. »

ووضع قبضة يده السليمة تحت أنف البرتغالى . لم أنتظر حتى أرى نهاية هذا الجدل ..

من الغريب أننى عندما قصدت المستشفى قبل المحاكمة بيوم لبعض شئونى ، وجدت فى عنبر الرجال البيض ذلك الفتى .. والأغرب أن رفيقه ذا الشارب الكث كان معه .. يبدو أنه تسلل وسط المشاجرة ليقيم عند ذلك اللص الإيطالى (ماريانى) الذى كان يملك خمارة وبقالة هنا ، ومن الواضح أن الرجل لم يكن غريبًا عن الميناء ، لأن (ماريانى) جعله يقيم عنده وأخفاه لأنه مدين له بخدمة ما .. خدمة غير قانونية طبعًا ..

- « ماريانى لا ينسى المعروف .. ماريانى لا ينسى المعروف . »

لا أعرف نوعية تلك الخدمة ، لكن (مارياتى) أحسن وفادته وقدم له المأوى والطعام والخمر السام الذى يقطره . لكن الرجل فر من الفندق فى اليوم الثالث بسبب هجوم مجموعة من حشرات أم أربعة وأربعين على غرفته ، وظل يجرى فى الطرقات حتى وجده رجال الشرطة نائمًا فوق كومة من القمامة . أصابه الذعر وحسب أنهم يأخذونه إلى الشنق ، لكنه وجد طريقه إلى المستشفى حيث وجدته .

جلست جواره أحاول أن أروى فضولى .. فذكرت له كلمة (باتنا) بصورة عابرة .. هنا اتسعت عيناه ومد يدًا نحيلة كأنها ممسات الأخطبوط وأمسك بكتفى وقال :

ـ « باتنا .. أنا رأيتها تغرق .. لم يعد فى جسدى شىء سليم إلا بصرى . وقد رأيتها تغرق .. هم كانوا بطيئى التصرف فلم يفهموا إلا وقد صار نصفها تحت الماء .. وقد غنوا معًا هكذا ... »

وانفجر فى غناء مزعج كغناء الذئاب .. ثم أردف :

ـ « أؤكد لك أنه لا توجد عيون حادة كعينى فى هذه المنطقة من الخليج الفارسى .. آلاف الضفادع .. كانت السفينة مليئة بها .. لابد من مراقبتها كما تعرف .. »

وسال العرق من جبهته بينما هب نسيم العصر على الأسرة فى العنبر . واهتزت الستائر فشعرت بقشعريرة .. وقبضت مخالبه على كتفى بشدة .. وتشوه وجهه الطيب الذى يذكرك بوجه جندى عجوز ، ليصير بشعًا بفعل شىء كالخبث ..

ـ « ملايين منها تزحف وتتغذى علىّ .. سأهشمها كالذباب .. انتظر !.. النجدة ! »

وراح يصرخ كالمجنون حتى إننى فقدت ثباتى وفررت .. خرجت إلى فسحة بالخارج فاستعدت روعى .. وبدأت أرتب أفكارى ..

قابلت أحد الجراحين فى الممر ، فقال لى :

ـ « جئت لترى بحارك يا قبطان ؟.. إنه رجل غريب .. لك أن تتوقع ما حدث له .. ظل فترة عند ذلك الوغد الإيطالى أو اليونانى

وكان يشرب أربع أو خمس زجاجات من البراندى الرخيص يوميًا .. رأسه قد انتهى فعلاً .. لكن برغم هذا هناك شىء من المنطق فى هلوسته .. لا أعرف كيف أعبر .. هؤلاء عندما يهلوسون يرون ثعابين كما هى العادة ، أما هو فيرى ضفادع .. ها ها !.. ما زال قويًا بعد ما عاشه وبعد 24 سنة فى البحار الاستوائية .. لكنى أؤكد أنه لن يستطيع حضور التحقيق .. هل شهادته ضرورية ؟ »

قلت له وأنا أخرج من المستشفى :

ـ « بتاتًا .. »

* * *

الفصل الرابع

كانت السلطات كما هو واضح ترى نفس وجهة نظرى . تم التحقيق فى اليوم التالى ولم يؤجل ترضية للقانون . لكن ظلت المعضلة قائمة : كيف أصيبت السفينة باتنا ؟ لم يبد أن هناك أملاً فى معرفة هذا ..

كانت الأسئلة منهمرة على الرجل الوحيد الذى تبقى كى يشرح ما يحدث ، كأنها طرقات بالمطرقة على صندوق معدنى لمعرفة ما فيه ..

كان تحقيقًا رسميًا ليس هدفه هو (لماذا) العميقة ولكن (كيف) السطحية .. الأسئلة كانت تقتاد الفتى بعيدًا عما بدا لى الحقيقة الوحيدة الجديرة بأن تعرف ..

كان أحد المحققين هو (بريرلى) .. (بريرلى الكبير) الذى لابد أنكم سمعتم عنه . كان يشعر بملل من هذا الشرف الذى أسبغ عليه ، فهو لم يتعرض لحادث فى حياته ولم يرتكب أى خطأ .. وفى سن 32 كان يقود سفينة بخارية جبارة .. وكان يؤمن بجدارته لهذا وأن باقى البشر الذين لا يقودون السفينة (أوسا) التى تبلغ سرعتها 16 عقدة تعساء . ولو كنت أنت

إمبراطور المشرق والمغرب فلن يعاملك إلا بشىء من التعالى .. كان يجيد إشعار الناس بالضآلة ، ويعاملنى بذات التعالى لكن عزائى عن ذلك أننى أشارك باقى البشرية فى هذه المعاملة ، وأن السبب ببساطة هو أننى لست عظيمًا مثله .. هذا عزانى قليلاً ..

بعد هذه المحاكمة بوقت قصير انتحر (بريرلى) .

لقد نادى كبير الضباط المسن فى وسط الرحلة التالية ، وأدلى له بتعليمات الملاحة وسرعة السفينة واتجاهها وطلب منه أن يتولى القيادة . ثم نزل الدرجات الخشبية وكلبه يتبعه .. أمر الكلب بأن يصعد إلى ظهر السفينة وطلب من كبير الضباط أن يحبسه .. ثم قفز فى الماء فى الظلام . هذا ما عرفه الرجال عندما وجدوا ساعته معلقة على حاجز السفينة .. وقدر كبير الضباط أنهم تركوه 18 ميلاً من خلفهم بهذه السرعة . ترك خطابًا للشركة يقول فيه : إنه لم يقصر فى خدمتهم ، وإنه عهد بقيادة السفينة لضابط كفؤ يكبره فى العمر بعشرين عامًا . لكن الشركة أرسلت قبطانًا آخر يتولى أمر السفينة واضطر كبير الضباط للاستقالة برغم أن عنده ستة أطفال وزوجة ينتظرون على بعد آلاف الأميال .

سألنى العجوز وهو يضم يديه :

ـ « لماذا فعل ذلك يا كابتن (مارلو) ؟؟.. لو كان عجوزًا غارقًا فى الديون فقيرًا لفهمت .. كان شابًا ثريًا كامل الصحة .. أجلس فى البيت أفكر وأفكر حتى يوشك رأسى على الانفجار .. »

الحقيقة أننى كنت قد قابلت (بريرلى) أيام التحقيق الذى يرأسه ، وكان يمشى ساهمًا مقطبًا .. عندما قابلنى قال لى :

ـ « لماذا تصرون على أن تجعلونى أحمق ؟ »

كان من الغريب أن تصدر كلمات كهذه من رجل كهذا عظيم الكبرياء والغرور . ثم أردف :

ـ « لماذا تريدون تعذيب ذلك الشاب ؟.. لقد فر قبطانه الوغد ولم يبق سواه ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله له .. لقد انتهى أمره .. »

ومشى قليلاً صامتًا فقلت له إن قبطان (باتنا) يعرف كيف يهرب وكيف يعنى بنفسه ، لكن الأمر يختلف مع (جيم) . إن الحكومة تحدد إقامته فى نزل البحارة وليس معه مليم فى جيبه .. الهرب يحتاج إلى مال ..

قال الرجل :

ـ « هل يحتاج لمال ؟.. بالعكس .. يمكنه أن يتوارى فى قبر تحت الأرض .. »

أثار شىء فى كلامه رعبى فقلت :

ـ « لا تنكر أن هناك قدرًا من الشجاعة فى مواجهة مسئولياته .. خاصة وهو يعرف أنه لو هرب فلن يلاحقه أحد .. »

ـ « فلتذهب الشجاعة للجحيم !.. أنا مستعد لدفع مائتى روبية كى يفر هذا الفتى .. يجب أن يفهم .. هذه فضيحة صادمة . الفتى يجلس بينما كل هؤلاء البحارة الملاعين والملاحين يشهدون ضده بما يكفى ليحرقه بالعار ... »

قلت له إننى لا أرى جبن هؤلاء البحارة مهمًا لهذه الدرجة ، فقال لى فى غضب :

ـ « هل تدعو نفسك بحارًا ؟.. مشكلتكم هى افتقاركم للكرامة .. سوف أعطيك مائتى روبية مقابل أن تقنع هذا الفتى بالفرار"

كانت هذه لمحة من (بريرلى) الحقيقى رأيتها قبل أيام من اللحظة التى منح فيها حقيقته وزيفه للبحر . لكنى لم أفعل ما طلبه منى .. كان فى طريقة كلامه ما يوحى بأنه لا يعتبرنى أكثر من حشرة ، وهذا جعلنى عنيدًا ..

كما إننى كنت أدرك أن الفتى (جيم) يرغب فى أن يتطهر بتجربة قاسية ، وهذه المحاكمة العلنية كانت نوعًا من التطهر له ..

وصلت المحكمة متأخرًا فى اليوم التالى ، فجلست بعيدًا أراقب بريرلى .. إذن لم تكن تلك نظرة الملل على وجهه بل هى نظرة السخط .

التقت عيناى مع جيم فجردتنى نظرته من أية رغبة فى الكلام معه ، وأدركت أنى لن أكون ذا عون له . بعد انتهاء المحاكمة كان يقف وحده فى الشرفة فمررت خلفه ، هنا استدار لى وسألنى :

ـ « هل قلت شيئًا ؟ »

نظرت فى عينيه بثبات وتحد وقلت :

ـ « لم أقل .. »

كنا وحدنا تمامًا كما لو أننا فى غابة مقفرة من البشر .. عاد يسألنى عما قلت فشعرت بغيظ شديد .. يجب أن أعترف أنها من المرات القليلة فى حياتى التى شعرت فيها بأننى راغب فى مشاجرة حقيقية باللكمات .. عاد يسألنى :

ـ « لماذا ظللت تحملق فى طيلة التحقيق ؟ »

ـ « لا أحسب من واجبنا أن نطرق للأرض طيلة المحاكمة من أجل مشاعرك .. »

هذه المرة بدأ يهدأ قليلاً فقال :

ـ « نعم .. معك حق .. أنا أجتاز هذا وحدى .. »

كنت أرغب فى أن أنهى هذا الموقف بكرامة وبلا اشتباك .. لا أشتهى شهرة الثلاثة أيام التى سأحظى بها باعتبارى الرجل ذا العين السوداء نتيجة شجاره مع فتى (باتنـا) . لقد تقدم نحوى خطوة وقال :

ـ « حتى لو كنت فى قوة ستة رجال فلسوف أخبرك برأيى فيك ! »

صحت :

ـ « لحظة .. قبل أن تخبرنى برأيك فى ، هلا تكرمت أولاً بأن تخبرنى بما قلته أنا أو فعلته ؟ »

هنا نظر لى طويلاً ثم قال :

ـ « إذن لم يكن أنت .. لكنى حسبت .. سوف أجد الآخر .. »

واحمر وجهه الأحمر أصلاً بشدة .. أعتقد أنه كان لا يتحمل ما شعر به من مهانة ، وربما خيبة أمل .. أعتقد أنه كان يرغب فى مشاجرة طيبة تهدئ أعصابه .

انتهى هذا الموقف لكن ظل غامضًا لا ترى منه إلا لمحات عبر قماش ممزق .. إنه يثير فضول المرء لكنه لا يكفى كى يرويه ..

وفى تلك الليلة قَبل الفتى أن يتناول العشاء معى فى فندق مالابار ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

قال لى الفتى فى قاعة التدخين :

– « أبى العجوز خورى الكنيسة قرأ بالتأكيد تفاصيل القضية فى الجريدة .. معنى هذا أننى لن أعود للوطن ثانية .. لن أستطيع مواجهته أبدًا .. »

لقد فقد وظيفته وشهادته الملاحية وليس معه مليم . يمكنه الحصول على عمل لو عاد للوطن لكن هذا آخر شىء يريده .

منذ أول يوم التقطتهم فيه تلك السفينة البخارية (ديل لاين) هو ورفاقه الأربعة ، راح الكل ينظر لهم فى شك . حكى القبطان قصة ملفقة فقبلها المنقذون .. أنت لا تجرى تحقيقًا موسعًا مع هؤلاء الذين تنقذهم من الغرق فى البحر . شعر ضباط (ديل لين) بشىء (عفن) فى القصة لكنهم ابتلعوا شكوكهم . وعندما عاد للبَر شعر أن كل البحارة يشكون

فيه ويزدرونه . لهذا عندما نزل البحارة أمضى معظم وقته فى الشرفة . فقط كان يتناول الغداء ويقول إنه لم يلفظ ثلاث كلمات كاملة لأى شخص .

– « تخيل شعورى وأنا أترك 800 بشرى على ظهر السفينة نائمين .. لا يعرفون أى شىء .. لقد وثقوا فى .. عددهم أكثر بكثير مما يمكن أن تحمله قوارب النجاة حتى لو اتسع الوقت .. ماذا كان بوسعى أن أفعل ؟ »

أول ما خطر له هو أن يصرخ ويجعل هؤلاء النيام ينهضون مذعورين .. لكن الشعور بالعجز قهره وجعله يتصرف من دون صوت .. لسانه جاف يوشك على شق سقف فمه .. لقد توقفت المحركات لكن البخار يتصاعد منها ، والسفينة تهتز وتهدر كأنه وتر كمان مجنون ..

نظر للموتى .. نعم .. هم موتى !.. لا سبيل لإنقاذهم ولو أيقظهم لما وجد وقتًا كافيًا للنجاة .. القوارب لن تحمل سوى نصفهم وسوف يبدأ الصراخ والبكاء والعويل ..

هذه أشياء لن يخبر بها المحكمة ..

ثمانمائة حاج وسبعة قوارب نجاة .. ربما كان مستعدًا للموت ، لكنه لم يرد أن تصاحب الموت أهوال أخرى مثل الصراخ والتدافع والبكاء .. غباء الجموع الفظ ..

خطر له أن هناك وقتًا يسمح بتمزيق الحبال كى تطفو قوارب النجاة .. أربعة على جانب وثلاثة على الجانب الآخر ..

هنا أطبقت يد على كاحله ، ونظر له رجل عجوز وقال :

ـ « ماء !.. ماء ! »

كان قد بدأ يعرف حروف اللغة وفهم ما قاله الرجل ، لكن أى ماء يعنيه ؟ .. كان الرجل يعطله وقد بدأ النيام يصحون وهو يريد قطع الحبال بسرعة . هكذا ضربه بالمصباح بأقوى ضربة ممكنة فى وجهه ، فانطفأ المصباح وتهاوى الرجل .

لكن الرجل ركض وراءه من جديد وهو يحمل صبيًا مريضًا ..

ـ « هنا فهمت .. كان ظمآن !! .. كان يريد أن يشرب ونحن نسقيهم أقل القليل والصبى محموم .. ناولته زجاجة الماء التى معى فشرب منها بنهم ثم راح يسقى الصبى .. »

عندما بلغ قوارب النجاة وجد القبطان والمهندس يُنزِلون أحدها ، فسأل القبطان :

ـ « ماذا تنوى عمله ؟ »

ـ « نرحل حالاً ! »

لم يفكروا فى شىء .. حتى الماليزيين اللذين كانا يديران عجلة القيادة .. لم ينظر أحد لهما ..

كالمجنون أخرج سكينًا وراح يمزق الحبال التى تربط قوارب النجاة ، بينما هم ينظرون له متأكدين من أنه فقد صوابه فعلاً .. . وأمسك القبطان بيده وهمس بصوت عالٍ :

ـ « أنت مجنون .. . هؤلاء لو ركبوا القوارب فلسوف يظفرون بك ويمزقونك فى عرض البحر .. مطرقة !! .. ماين جوت (رباه) .. أريد مطرقة ! »

وهوى بالمطرقة على القفل الذى يربط القارب فتهاوى ..

عندها وجد جيم نفسه يثب ليلحق بالرجال فى القارب الذى نزل إلى البحر .. رأى جانب السفينة يتألق بالضوء الأحمر .. كانت عالية كالجدار .. . ثم اختفى هذا الضوء ..

هكذا بدأت رحلة هؤلاء مع الخوف فى ظلام البحر .. الخوف من الموت الذى يطاردهم فى كل لحظة . ومن الغريب أن السفينة لم تغرق .. كأنما الأقدار أرادت أن تستبقى هؤلاء الحجاج على الأرض كى يشهدوا بما حدث ..

كان رجال الطاقم يجدفون بأعنف ما استطاعوا .. القارب ثقيل لكنهم يدفعونه بالأيدى .. يجدفون بالأيدى .. من أجل الحياة الغالية ..

قال جيم :

ـ « كنت أكرههم .. كنت أحتقرهم .. »

ثم بدأ يرتجف .. وقال كأنه يوشك على فقدان الوعى :

ـ « لقد صرخوا !.. ثمانمائة واحد كانوا يصرخون .. »

كانت عاصفة دانية من الأفق فابتلعت نصف السماء وتوارت النجوم ، وطارت قبعته وعجز عن التنفس ..

قال وهو يبكى :

ـ « ليتنى مت !.. لكن التراجع كان مستحيلاً .. لقد وثبت من السفينة فكأننى وثبت فى بئر أبدية بلا قرار .. »

★ ★ ★

الفصل السادس

عندما نظر للخلف رأى أن مقدمة السفينة مـا زالت فى الأفق .. أفزعه هذا .. الغرق لم ينته بعد .. كان يريد لهذه البشاعة أن تنتهى فورًا ..

لا شىء حولهم سوى السواد ولا يرون بعضهم .. أسنان أحدهم تصطك فى الظلام ..

كان يتمنى أن يرى المشهد كاملاً، ولم يدهشنى هذا .. هو موقن أن الحقيقة ليست أكثر بشاعة ولا قسوة مما يصوره له خياله .. آلام وعذاب 800 رجل يلقون نهايتهم فى الظلام الآن ولا يفهمون السبب ..

ـ « ثم ساد صمت .. صمت رهيب .. لا يمكن أن يكون هناك مكان أكثر صمتًا فى الكون كله .. لا يمكنك أن تفرق بين السماء والبحر .. لا يوجد شكل واحد ولا يوجد صوت واحد .. »

راح رجال الطاقم يرددون مرارًا لا حصر لها :

ـ « لقد ذهبت ..! غرقت !.. ما من أحد كان بوسعه أن يعمل شيئًا .. »

ولاحظ أنهم يتكلمون عنها كأنها كانت سفينة خالية .. لقد أحسنت صنعًا بالغرق فقد استحقت هذا .. وقال أحد المهندسين وهو يرتجف :

ـ « أنا سعيد .. أنا سعيد .. أنا سعيد .. »

وفجأة انفجر فى البكاء ..

قال لى جيم :

ـ « كنت أقل توترًا فى القارب مما أنا الآن .. لا خوف .. لا قانون .. لا صوت .. لا عيون .. حتى أشرقت الشمس فى النهاية .. رأى القبطان أننا سنجد سفينة تنقذنا حتمًا لأن هناك سفنًا كثيرة فى المنطقة، وهناك دخان يتصاعد نحو الجنوب الغربى . هنا بدأ الثلاثة يتفقون على القصة التى سيحكونها لمن ينقذهم . لم أصغ .. كنت مرهقًا .. مرهقًا .. وشعرت بساقى تتخاذلان من تحتى .. كأنى لم أنم ساعة واحدة منذ مولدى .. »

كانوا يتكلمون فيما بينهم عن الفتى : « الحمار السخيف سوف يوافق على كل شىء .. » .. « لن يتكلم » .. ثم رفعوا الشراع وناموا تحته اتقاء للشمس بينما ظل هو وحده فى الخارج لا يبصر البحر من فرط الوهج .

ـ « كنت قد فقدت قبعتى والشمس تحرق رأسى بلا توقف ، لكن فى ذلك اليوم ما كان شىء قادرًا على أن يؤذينى أو يصيبنى بالجنون .. »

كان الفتى قد نهض الآن فى بهو الفندق ، وراح يمشى جيئة وذهابًا ويداه فى جيبيه . الشمعة الخافتة تتوهج ومن خلفه الليل المظلم والنجوم . برغم هذا كنت أرى فى ضوء غامض رأسه الصبيانى كأنه دون قصد يكشف عن الطفل بداخله . كان نوع الشاب الذى تتمنى أن تراه أمامك .. نوع الشاب الذى تتمنى لو أنك كنته يومًا ..

لا أعرف إلى أى حدٍّ بدوت له مسنًا أو حكيمًا ، لكنى أعرف يقينًا أننى لم أكن نصف ما حسبه ..

قال لى :

ـ « القصة التى قاموا بتلفيقها لم تكن قصة بالضبط ، لكنها كذلك لم تكن الحقيقة .. شىء تعرف أنت فقط أنه كذبة .. لم يكن هناك حاجز واضح فاصل بين الصواب والخطأ فى هذه القضية .. لو أننى ظللت على السفينة لفعلت كل ما بوسعى كى أنجو .. تشبثت بقطعة خشب أو مجداف لأظل حيًا .. كنت سأطفو لساعات وغالبًا ما كان سيتم إنقاذى .. »

ثم لكم صدره لكمة أفزعتنى ، وقال :

ـ « شعرة !.. مقدار شعرة بين هذا وذاك .. لكن من الصعب أن ترى شعرة وسط هذا الظلام .. لقد فقدت حياتى بريقها وكل ما يجعلها مبهجة .. »

بعد صمت طويل قال :

ـ « وجدتنا سفينة (آفونديل) قبل الغروب .. التقطتنا وعلى متنها حكى الثلاثة قصتهم .. زعموا أننا أوقفنا السفينة وقيمنا حجم الأذى ثم بدأنا إنزال القوارب .. لما نزل القارب الأول مالت السفينة وغرقت فجأة بينما نجونا نحن .. هكذا كانت قصتنا .. هل تذكر الصرخات التى حكيت لك عنها ؟.. الصرخات الخافتة التى سمعتها .. أنكر الباقون أنهم سمعوا أى شىء ، ثم نزلنا على الشاطئ .. ومرت أيام ثم جاءنى ذلك الشاب .. أخبرنى أن الباتنا نجت .. أنقذتها سفينة حربية فرنسية .. جرتها خلفها إلى (عدن) .. هناك تحقيقات .. »

ومن جديد ساد الصمت ، والحقيقة أن قدرتى على سماع ما هو أكثر قد تلاشت ..

كان يقول :

ـ « كيف لى أن أعرف أن السفينة كانت طافية ؟.. لقد غابت أضواؤها عنا .. لو عرفت أنها موجودة لعدت لها وصعدت لظهرها .. لصححت هذه الغلطة .. أقسم لك .. هل تحسبنى كذابًا ؟.. كيف تجرؤ على الشك فى كلامى ؟.. أؤكد لك إننى لو رأيت ضوءًا لما كنت هنا معك .. »

لم أبتلع قصة غياب الضوء هذه ، وقد قيلت فى المحكمة فقرب قبطان عجوز يجلس جوارى لحيته البيضاء لتجرح خدى ، وقال :

ـ « بالطبع .. لابد أن يكذبوا .. »

لكنى لم أعتقد أنهم كذابون .. فقط كانوا فى ظروف تجعلك تتخيل أشياء ، ولربما كان وضع السفينة نفسه لا يسمح برؤية الضوء ..

القدر أرسل للسفينة الطافية الموشكة على الغرق سفينة فرنسية حربية ، أثار دهشتها هذا الصمت وهذا السكون .. صوب القبطان الفرنسى نظارته المقربة إلى سطح السفينة فرأى عشرات بل مئات العيون التعسة الصامتة تنظر له .. لا توجد علامات على أن هناك وباء حل بالسفينة .. أطلق التحية لكن لم

يرد أحد على ظهر الباتنا . هكذا أرسل قاربًا يستكشف .. لم يفهم أحد ما يقوله هؤلاء العرب لكن الكارثة كانت لا تحتاج إلى شرح . لم يكن أحد يجيد الإنجليزية ليتفاهم مع الماليزيين كذلك . هذا هو ما قاله لى ملازم فرنسى عجوز قابلته فيما بعد . فى النهاية قرر القبطان الفرنسى جر السفينة جرًا إلى أقرب مرفأ بريطانى تنتهى عنده مسئوليته .

وبعد ثلاثين ساعة وصلت السفينة وتم إخلاء الركاب سالمين .

الفصل السابع

وجدت لـ (جيم) وظيفة فى نقل المؤن إلى السفن ، وهى وظيفة لا تناسب أبدًا طموحاته القديمة لكنها الشىء الوحيد الذى وجدته ويسمح له بالاحتفاظ بجسده وروحه معًا .. كان يحلم بأن يكون فرس سباق عظيمًا ، فوجد نفسه فى مهنة بلا مجد كأنه حمار يحمل أثقالاً .

أعترف أنه أدى عمله بإخلاص ودون أن ينطق بكلمة ، فيما عدا لحظات نادرة عندما كانت قصة (باتنا) تعود للسطح . للأسف هذه الفضيحة فى البحار الشرقية لم تمت قط .

كنت قد فارقته بعد ذلك العشاء فى فندق مالابار وسيف عدالة بلاده فوق عنقه . فى الغد بل اليوم لأننا تجاوزنا منتصف الليل كان المستشار صارم الوجه سوف يهوى بالسيف عليه . عشاؤنا كان العشاء الأخير لرجل انتهى أمره .. كان مذنبًا فعلاً .. برغم هذا تمنيت ألا يتعرض لتفاصيل التنفيذ .. تذكرت خطة (بريرلى) عن تهريبه . معى الروبيات .. الكثير منها ويمكن أن أرتب هربه وأكتب له خطاب توصية ..

لكن الفتى رفض فكرة الفرار تمامًا شاكرًا .. وقال كأنه يكلم نفسه :

- « بعضهم هرب أو تمارض .. لا أحد منهم يقدر على مواجهة مسئولية ما فعله .. لكنى لن أفر .. لن أنكمش .. »

فقدت ثقتى بنفسى وأعتقد أنه فقد ثقته فى كذلك .. قلت له :

- « أعتقد أنك نلت كفايتك .. »

قال :

- « لأكون صريحًا .. أنا كذلك أعتقد هذا .. »

قلت له وهو يأخذ قبعته :

- « أريد أن أراك قبل أن ترحل .. »

- « لا أرى ما يمنعك من هذا .. حكم المحكمة لن يجعلنى خفيًا .. لست محظوظًا لهذه الدرجة .. »

وابتعد ليبتلعه الليل .. كان أحمق مروعًا .. مروعًا .. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين بعد ..

فى الصباح تناولت إفطارى متعجلاً ولم أذهب لسفينتى ..

ذهبت للمحكمة .. سيكون هنا إعدام لكن لم تكن هناك حشود تطلب الرحمة ، ولا غمامة توضع على عين المجرم . فقط هناك أوراق شجر وكتف عارية تبرز من سارى هندى ومجموعة من رجال الشرطة المحليين غارقين فى خيالات التجسد وتناسخ الأرواح ..

بالله عليك .. كان جو المحكمة أسوأ بكثير مما لو كان الأمر يتعلق بقطع رأس .. هناك جو عام من النهاية والحتمية لن ينهيه سقوط الفأس على الرأس . هذه المحاكمة فيها كل قسوة الإعدام مع كل برودة النفى .

لا أحد يعرف حتى اللحظة سبب اصطدام السفينة (باتنا) لكن هناك سفينة نرويجية غرقت فى هذه الإحداثيات ، ومن الوارد أن يكون حطامها قد ظل يبحر تتقاذفه العواصف حتى اصطدمت به (باتنا) فى الظلام .. إنه كابوس الملاحة الليلية ..

أفقت من خواطرى على صوت المستشار يقول وعيناه الحادتان تلقيان لمحات خاطفة على (جيم) :

ـ « .. والتخلى وقت الخطر عن الأرواح والملاك التى عهد لهم بها .. لهذا .. تقرر إلغاء شهادة الملاحة .. »

انتهى الأمر وتم الإعدام فعلاً ..

بدأ الناس يتفرقون .. ونهض الفتى متجهًا للباب ..

لحقت بجيم فى طريقه للشارع ، وحاولت أن أمسك بذراعه معزيًا لكنه نظر لى كأننى الشر مجسدًا .. وابتعد .. كان الشارع طويلاً وقد ظل فى مجال بصرى لفترة ..

بمجرد أن اختفى التقيت اثنين من الأوغاد المشهورين فى البحر ، والذين لا يمكن أن يثق بهما أحد .. كانا رجلين مغامرين مجنونين تمامًا ، وقد عرفا أننى أعرف الفتى فعرضا على أن يعمل معهما فى مهنة جمع سماد السمك .. هناك جزيرة فى البحر وجدها أحدهما بها كمية هائلة من هذه القاذورات ، وسوف يكون الفتى مسئولاً عن مراقبة أربعين من العمال مسلحًا ببندقية وحزام من الطلقات .. لا ماء .. شمس حارقة .. فضلات حتى الخصر ..

قلت لهما إنها مهنة لا أختارها لألد أعدائى .. فقالا :

ـ « تذكر أن الفتى لم يعد صالحًا لشىء .. »

عدت للفندق مفكرًا ، ومن الغريب أن الفتى جاء عندى ليمضى ليلته .. عرفت أنه اختار هذا المكان لأنه يريد أن يكون وحيدًا فى وحدته . لم أتكلم معه لأننى خشيت أن يكون عنيفًا معى كما حدث ظهرًا ، بل تركته لهواجسه وآلامه ورحت أكتب .. أكتب بلا انقطاع وأنا أرمق ظهره إذ وقف فى الشرفة ينظر للضوء شارد الذهن .. كان يشهق بعنف كأنما هو جائع للهواء ..

سوف يأتى الوقت الذى يصير فيه الفتى محترمًا جديرًا بالثقة ومحبوبًا .. تحيط به هالة أسطورية من القوة ، وهذا حقيقى .. حقيقى كجلستى معكم الآن ..

إنه يملك حلمًا ، ومن دون هذا الحلم ما عرفت الأرض مغامرًا أو عاشقًا .. لكن كان عليه أن يعانى كثيرًا قبل أن يحقق حلمه هذا ..

فجأة توهجت السماء وارتسمت لى حدوده الخارجية سوداء بينما أضيئت الغابة كلها ، ثم دوى صوت الرعد وانهمر المطر مدرارًا ..

أغلق باب الشرفة وعاد لى حيث جلست على المكتب وطلب منى لفافة تبغ .. ناولته الصندوق فأشعل واحدة ، وقال :

ـ « الرياح الموسمية مبكرة هذا العام .. »

هززت رأسى موافقًا فجلس بقربى وظهره لى بينما أنا أنهى كتابة العناوين على المغلفات ..

قال :

ـ « بالتأكيد هناك فرصة أمام الإنسان كى يصلح ما فاته ويجد ما ضاع منه .. ربما لو كانت الحياة طويلة بما يكفى .. »

ـ « لا تعتمد على هذا .. »

قال لى وهو يطوح اللفافة :

ـ « وداعًا .. »

واتجه إلى الباب ، فصحت به مذعورًا :

ـ « انتظر !.. لا ترحل ..! هناك .. يمكنك أن .. »

ـ « لن أقبل أن تدعونى على العشاء ثانية .. »

- « وأنا لم أفكر فى هذا .. »

وكان المطر ينهمر بغزارة فى الخارج والظلام دامس ، لذا عاد ليجلس .. كنت أدرك أنه لو ضاع منى فى الظلام فلن أراه أبدًا ثانية . قلت له :

- « يجب أن تفكر فى الغد .. كيف ستعيش .. كيف ستأكل .. على الأقل دعنى أساعدك .. »

- « لن يمكنك مساعدتى .. »

- « أقر بهذا .. لكنى أستطيع مساعدة الجزء الذى أراه منك .. هذا الخطاب الذى كنت أكتبه موجه لرجل لم أطلب منه خدمة قط .. فيه أجعل نفسى مسئولاً عنك بلا تحفظ .. هل تفهم معنى هذا ؟ »

نظر لى .. المطر فى الخارج بدأ يرحل ، والشمعة تتوهج كأنه نصل خنجر .. وهناك ضوء خافت يتسرب من الستائر معلنًا اقتراب الفجر ..

قال :

- « لن تتضايق لأننى لم أقل شيئًا مناسبًا .. ليس هناك ما يقال .. سوف أبدأ من جديد بصفحة خالية .. »

- « لا تقل شيئًا يا صاحبى .. »

اتجه للباب من جديد وخرج ..

وحدى ظللت مع الشمعة التى لم تنطفأ لسبب مجهول . صفحة خالية .. هل هذا ما قاله ؟.. كأن قدرنا لم يحفر بحروف لا تزول على الصخر ..

* * *

الفصل الثامن

بعد ستة أشهر كتب لى صديقى الذى أوصيته بـ (جيم) وهو عزب تجاوز منتصف العمر غريب الأطوار ولديه مضرب أرز وقد أدرك من دفء توصياتى أننى أريد متابعة أخبار (جيم). قال لى إنه سعيد بوجوده عنده فى داره ، هو الذى لم يتحمل أى بشرى من قبل ، ومن المؤكد أنه على حق . كان (جيم) رصينًا مهذبًا .. لكنه على قدر من السذاجة .

قال صديقى :

ـ « لا أقدر على تصور أن هذا الفتى متهم بشىء أكثر من سرقة بعض الفاكهة من بستان .. هل هو أسوأ من هذا ؟.. على كل حال قد مر وقت طويل منذ صرت أنا وأنت قديسين ، لذا نسينا أننا كنا نخطئ فى شبابنا .. لا تقلق فأنا لن أسأله عن ذنبه .. »

سررت من الخطاب وشعرت بأننى أحسنت التقدير . بعد هذا قمت برحلة لأسبانيا ، فلما عدت فوجئت بخطاب آخر من صديقى يخبرنى أن الأمور على ما يرام وأن أية ملاعق لم تختف من مائدة

الطعام بعد ، لكنه باع مضرب الأرز وتقاعد . لكن الخطاب الثانى كان من (جيم) نفسه !.. هل تصدقون هذا ؟.. فرصة فى المليون!

كان جيم يكتب لى من مكان يبعد 700 ميل عما كنت أتوقعه ، وقد قال فى خطابه :

ـ « أنا الآن مع شركة (إيجستروم وبليك) لإمدادات السفن .. أخبرتهم عنك فلو استطعت أن تكتب لهم رسالة توصية لظفرت بتعيين دائم .. »

طبعًا كتبت له الخطاب ، وقابلته بعد هذا بعام ..

حدثنى عن صديقى الذى عمل عنده .. كان أقرب إلى أب له .. وفى النهاية وجد (جيم) نفسه مضطرًا أن يحكى له قصة (الباتنا) بالتفصيل ، وبعدها طلب الرحيل .. كان يود الابتعاد عن هذه القصة بأى ثمن ..

ـ « هم مهذبون جدًا معى هنا .. »

فى هذه المهنة المرهقة كان ينتظر دخول السفن إلى الميناء ، ثم يركب قاربًا ويحاول أن يكون أول من يصل هناك . تركته يتأهب للحاق بسفينة جديدة ، ورحلت فلم أعد إلا بعد ستة اشهر ..

قابلت (إيجستروم) نفسه فرحب بى وأخبرنى أن (جيم) لم يعد معهم ..

ـ « لقد سبب لنا الكثير من الأذى واستغلنا ثم رحل .. »

جلست مندهشًا أحاول أن أجد تفسيرًا لهذا الكلام فقال لى (بليك) الشريك الثانى :

ـ « رجل كهذا لا يقصد مكانًا بعينه .. ذات مرة رست هنا سفينة عليها حجاج عائدون من البحر الأحمر .. وكانت شفرتان من مروحتها قد تحطمتا .. لقد مرت على هذا ثلاثة أسابيع .. »

هنا سألته :

ـ « هل تكلموا عن (الباتنا) ؟ »

نظر لى فى دهشة كأننى ساحر وقال :

ـ « نعم .. كيف عرفت ؟.. كان هنا قبطان أو قبطانان يتناولون شطيرة مع البيرة .. وكان جيم معنا .. راح القبطان يراقب سفينة الحجاج ، ثم بدأ يحكى لنا عن قبطان (باتنا) وكيف كانت سفينة سيئة وبرغم هذا جلبت لصاحبها مالاً كثيرًا .. كان

معنا رجل عجوز يدعى القبطان (أوبرايان) وكان يصغى للكلام وفجأة ضرب الأرض بعصاه غاضبًا وصاح :

ـ « عم تتكلمون يا فئران ؟.. لقد كانت قصة (باتنا) هذه عارًا على الجنس البشرى كله .. إننى لأخجل أن أوجد فى غرفة واحدة مع واحد من طاقم تلك السفينة .. »

ثم نهض غاضبًا بلا سبب واضح وغادر المكان ..

فوجئت بجيم يدنو منى والشطيرة فى يده ويقول لى :

ـ « أنا راحل .. »

حسبته يقصد أنه سينهى عمل اليوم ، لكنى عرفت أنه يقصد الاستقالة فأصابنى الذهول .. لا يمكننى أن أجد فتى كهذا كل يوم .. شيطان حقيقى فى قيادة القوارب والتوغل فى البحر للصعود على السفن .. ولكم من قبطان قال لنا إنه مجنون حقيقى .. وسط الضباب والعواصف تجده تحت مقدمة السفينة ثم يصعد على متنها كأنه الشيطان .. لم تكن لأية شركة أخرى أية فرصة و(جيم) هذا يعمل معنا .. هكذا قلت له :

ـ « هلم .. لا داعى لهذه الضوضاء .. الأمر يتعلق بزيادة راتب يا جيم فقل لى الرقم الذى تريد .. »

لكنه نظر لى فى ثبات وأدركت من عينيه أنه قد فارقنا بالفعل ..

صحت فيه :

ـ « ماذا ضايقك لهذا الحد أو أثار رعبك ؟.. أنت لا تملك ذكاء الفئران التى لا تفارق سفينة صالحة أبدًا .. هذه الشركة لن تغرق .. »

لكنه قال :

ـ « وداعًا .. أنت رجل طيب يا (إجستروم) لكن لو عرفت أسبابى فلن تبذل جهدًا للاحتفاظ بى .. صدقنى ! »

وهز رأسه كأنه لورد. لا أعرف ما دهاه .. هو لم يعط نفسه الوقت الكافى ليفرغ من التهام الشطيرة ، وأعتقد أنه لم يكن يقدر على بلوغ الباب . لقد رحل بوجه كالح يفزع الأطفال ، وصرت عاجزًا عن أن أجد واحدًا ممتازًا مثله . من أين جئت بهذا الفتى يا قبطان (مارلو) ؟

هنا شعرت بأننى مدين له بتفسير فقلت :

ـ « كان من ضباط تلك السفينة (باتنا) عندما غرقت .. »

تصلب ونظر لى فى ذهول .. ثم قال :

ـ « ومن يبالى بهذا بحق الجحيم ؟ »

ـ « لا أحد .. »

تحسس سالفيه وقال :

ـ « لقد قلت له إن الأرض كلها لن تتسع لمزاجه النارى هذا .. »

* * *

الفصل التاسع

عرفت المزيد من أخبار جيم بعد هذا ، فسمعت أنه عمل فى غابات تايلاند لفترة .. تشاجر فى إحدى الحانات مع مستشار بريطانى للقوات الملكية السيامية . يبدو أن هذا الضابط أفرط فى احتساء الخمر وقال ملاحظة مهينة عن جيم . وكان مصير الضابط أن يسقط فى النهر لأن الحانة كانت لها شرفة تطل على النهر ، حيث انتشله قارب صينى . كان هذا سيئًا لأن الفتى حتى اللحظة حافظ على صورته كشخص مهذب وديع ، لكن شعرة واحدة تفصله عن نعت البلطجى .. لكنى بالطبع لم أكن أنوى أن أغسل يدى منه .. وقد قمت بنفسى بإخراجه من بانجوك على سفينتى ..

لم يدر بيننا كلام تقريبًا طيلة هذه الرحلة ، وعندما كنا ننفرد معًا لم نكن نعرف ما نفعله بعيوننا ..

كان علىَّ أن أجد حلاً لهذا الفتى ..

عرضت المشكلة على صديق لى يدعى (شتاين) .. كان شتاين تاجرًا هولنديًا مولعًا بجمع الحشرات وهو يهوى مساعدة

البريطانيين لأنه ممتن بلا حدود لخدمة قدمها له تاجر سكوتلندى فى شبابه . عرف (شتاين) على الفور أن جيم رومانسى .. وهذا شىء سيئ للغاية لكنه كذلك جيد ..

أعتقد أنكم لم تسمعوا عن (باتوسان) قط .. لا مشكلة .. هناك كواكب كاملة تحيط بنا فى جلستنا هذه لم يسمع بها أحد ، لأنها خارج نطاق نشاطاتنا ولا قيمة لها إلا لعلماء الفلك الذين يتلقون راتبهم كى يتكلموا عنها . كذا كانت (باتوسان) .. لا يتكلم عنها سوى عدد محدود فى دوائر الحكم فى (باتافيا) .. لم يذهب أحد هناك قط ولم يرغب أحد فى ذلك .

لكن (جيم) ذهب هناك . لو كان (شتاين) قد أرسله لنجم بعيد لما كان الأمر بهذه الغرابة ..

كان (شتاين) يعرف عن (باتوسان) أكثر من أى واحد آخر .. أعتقد أنه ذهب هناك حتمًا .. كنت قد قلت له ما قاله (بريرلى) المسكين :

ـ « دعه يزحف عشرين قدمًا تحت الأرض ويظل هناك .. »

فنظر لى وقال :

ـ « هذا ممكن .. هناك (باتوسان) .. والمرأة قد ماتت كذلك على كل حال .. »

لم أفهم ما يقصده .. لا أعرف علاقة لشتاين بأية امرأة سوى تلك الفتاة من الملايو التى كان يحبها ويطلق عليها (زوجتى الأميرة) . فهمت فيما بعد أنه يتكلم عن فتاة أخرى من الملايو نصف هولندية تزوجت فى جزر (ملقة) من برتغالى يعمل فى إحدى المستعمرات . يبدو أن هذا الرجل كان شخصًا غير سوىّ لكن (شتاين) عينه مديرًا لشركته التجارية فى (باتوسان) من أجل خاطر زوجته فقط .. الآن ماتت المرأة ولم يعد مضطرًا للاحتفاظ بهذا الوغد هناك لذا صار المنصب شاغرًا .. كان اسم البرتغالى (كورنيليوس) وهو رجل يعتقد أنه ينال أقل مما يستحق .. على (جيم) أن يأخذ منصب هذا الرجل ، وإن كنت أعتقد أن الرجل لن يفارق الجزيرة .

إن باتوسان مقاطعة نائية .. هناك على بعد أربعين ميلاً من البحر ، يمكنك أن ترى جبلين متلاصقين يفصلهما أخدود عميق هو فى الواقع مجرى لمياه السيول . كأنك ترى جبلاً عملاقًا انشطر نصفين .. ومن بيت (جيم) الجميل ذى الطابع المحلى يمكنك

أن ترى القمر مكتملاً كأنه يطفو فوق المضيق حتى يتحرر .. أو كأنه يفر من قبر يتثاءب ..

ذات مرة قال (جيم) وهو واقف جوارى :

ـ « تأثير ساحر .. أليس كذلك ؟ »

فى صوته نوع من الفخر المضحك كأنه مسئول عن هذا المشهد .. لقد صار مسئولاً عن أشياء كثيرة فى باتوسان بعضها أكثر تعقيدًا من هذا القمر . أعطيته مسدسى وصندوقًا من المعدن يصلح لحفظ حاجياته . وقد قال لى واعدًا :

ـ « سوف تسمع عنى كثيرًا .. »

الحقيقة أننى كنت أتوق لهذا .. تمنيت أن أضع جيم فى مكان بعيد وأتخلص منه لأننى كنت عازمًا على العودة للوطن ..

كنت عائدًا للوطن أخيرًا .. كلنا نحارب وراء البحار من أجل المال أو المجد أو كسرة خبز ، لكننا نعود للوطن كأننا نسلم كشف حساب . نعود لنواجه رؤساءنا وأهلنا وأصحابنا ومن نطيعهم ومن نحبهم .. حتى هؤلاء الذين لا أقارب لهم فى

أوطانهم يحتاجون للعودة كى يلاقوا روح الوطن ذاتها .. فى النهاية يجب أن تعود بضمير مستريح .. يجب أن تلمس الجائزة بيد نظيفة وإلا جفت وتحولت إلى أوراق .. هل تعتبر كلامى مفرطًا فى عاطفيته ؟.. ربما ..

كل نبتة لها الأرض التى تستمد منها حياتها وقوتها .. وجيم كان يعرف أنه لن يعود لوطنه ثانية أبدًا ..

برغم ذلك كان هذا أنسب موضع له .. ثلاثون ميلاً من الأدغال تفصله عن عيون العالم .. صخب الموج الأبيض يعلو على صوت أية سمعة سيئة .. تيار الحضارة يتدفق من الشمال لكنه ينقسم يمينًا ويسارًا ويترك باتوسان بناسها البسطاء البدائيين .. مهملين معزولين ..

ربما تسمع اسم هذا البلد فى قصص الرحلات القديمة ، لأن تجار القرن السابع عشر ذهبوا هناك من أجل الفلفل .. وحب الفلفل كان نارًا تتقد فى صدور المغامرين الهولنديين والأمريكيين فى عصر جيمس الأول . من أجل كيس من الفلفل كادوا يقطعون حلاقيم بعضهم ويبيعون أرواحهم . من أجل الفلفل تحدوا الموت والأسر والجوع .. لقد جعلهم أبطالاً! ومن أجله تركوا عظامهم تجف على شواطئ مجهولة ..

كان هناك فلفل كثير فى باتوسان وانبهروا بحكمة وعظمة السلطان .. لكن بعد فترة نضب معين البلد من الفلفل ، ولم يعد السلطان سوى صبى متخلف عقليًا له إبهامان فى كفه ، وأعمامه هم الذين يحكمون فعلاً .

كان (شتاين) من القلائل الذين يملكون شركة فى هذا البلد بإذن خاص من الحكومة الهولندية ، وإن كانت تلك الأخيرة قد جعلت سلامته مسئوليته الخاصة ، وهو كان صريحًا مع رجاله فأخبرهم بهذا لكنه أجزل لهم العطاء .

تعرف جيم على من يدعى (دورامين) وهو من أهم الرجال هنا ، وقد كان صديق مستر (شتاين) فى هذا البلد ، وكان هذا الأخير يطلق عليه (زميل الحرب) ..

كانت هناك قوى معارضة ومنها الراجا (ألانج) أسوأ أعمام السلطان الذى أباد كل الملاويين فى البلد ، دون أن يمنحهم مجرد خيار الهجرة .. لقد قابله (شتاين) ووجده عجوزًا قذرًا له عينان شريرتان يبتلع قرص أفيون كل ساعتين .. كان (شتاين) يقدم له (جيم) على سبيل الاحترام ، وكان هناك نحو أربعين رجلاً فى الغرفة ..

لقد وقف جيم وسط هذه القذارة والسحنات الداكنة ، بثيابه البيضاء النظيفة وشعره الأشقر الذى بدا أنه يمتص كل انعكاس شمس فى القاعة . لم يبد بشريًا ولولا أنهم رأوه يركب قاربًا لحسبوه هبط من السماء .

عندما يقيم جيم هنا فلسوف يكون كأنه لم يوجد قط بالنسبة للعالم الخارجى .. لن يجد قدمين يقف عليهما سوى قدميه ..

قال جيم لنفسه مغمغمًا :

ـ « لم أوجد قط !.. كم أحب هذا ! »

لو كان يفهم ما قلته ويعرف ما أعرفه لفر على أول سفينة تغادر هذا المكان ، ولقصد بيت (شتاين) طالبًا تعليمات جديدة ..

الفصل العاشر

كان ساحل باتوسان ـ كما رأيته بعينى بعد عامين ـ مستقيمًا كئيبًا أمامه محيط ضبابى . هناك غابات كثيفة تحتها طرق حمراء تبدو من بعيد كأنها خطوط الصدأ .. هناك قرية صيادين عند مصب النهر . النهر نفسه كان مغلقًا للملاحة منذ فترة ولكنه صالح الآن .

عندما زرت البلدة جاء زعيم قرية الصيادين ليقود السفينة لنا ، وتكلم معى أنا ثانى رجل أبيض يتكلم معه فى حياته .. الأول كان اسمه (توان جيم) .. قالها بمزيج من الألفة والرهبة . لقد كان وقريته تحت حماية هذا الرجل .. عندها عرفت أن جيم حقق ما وعد به .. سوف أسمع عنه .

كان أهل القرية مندهشين لقدوم جيم وكرمه وإصراره على البقاء هنا .. هذا شىء لم يسمعوا عنه قط .. ماذا سيقول الراجا لو سمع هذا ؟

جيم قد ترك البحر بأمواجه العالية المغرقة التى ترمز لكفاح الإنسان ، من أجل الغابات الساكنة التى حفرت جذورها فى

التربة . ينتظر الفرصة التى يكشف فيها عن فضائله كأنه عروس شرقية تنتظر أن يزيح زوجها النقاب عن وجهها .

فى القارب راح يراقب النهر ويتسلى بتخمين ما إذا كان هذا الجسم الأسود غصن شجرة أم تمساحًا .. ثم عدل عن اللعبة لأنها مملة .. كلها تماسيح ..

عندما لمس القارب الضفة ترجل الرجال مبتعدين بسرعة ، وانفتحت بوابة عملاقة ، وعلى الفور رأى أمامه قاربًا مليئًا بالحراس المدججين بالسلاح .. لو كان مسدسه محشوًا لفقد أعصابه وقتل اثنين أو ثلاثة منهم ولمات بعدها ، لكن مسدسه كان فارغًا فعرف أن عليه التصرف بثبات وبثقة ..

قال له الرجال إن الراجا يريد مقابلته . كان التنكو (ألانج) لا يتمتع بالشجاعة برغم كل ما يحكيه عن بطولات شبابه ، وكذلك كان الكل يعرف كيف يعامل سجناءه . إنه يقدم القهوة لضيوفه وهى سائل مقزز حقًا ، لكن ليس بوسعك أبدًا أن تعرف إن كان دس لك سمًا أم لا .. مناقشاته مع رجاله تنتهى غالبًا بخنجر إندونيسى ينهى كل شىء ..

كان (جيم) يحكى لى هذا كله ونحن نقف فى شرفة بيته . قال لى :

- « تصور أنه لا يوجد بيت فى قرية فى هذه الأدغال إلا ويثق بى ؟.. يثق بى أنا بعد كل ما جرى لى .. »

الحقيقة أن هؤلاء القوم قد ظفروا به .. جعلوه ملكًا لهم حتى آخر قطرة فى دمه وحتى آخر زفير من رئتيه . لكنى شعرت بفخر .. وشعرت كذلك بالرضا ليس عن شجاعته فأنا أعتبرها شيئًا معتادًا مفروغًا منه لكن عن صفاته الأخرى . عن جاهزيته وعن يقظته وقدرته على استيعاب ما هو غير معتاد . هذا العمل أعطاه القدرة على أن يشفى من ذكراه القديمة ولهذا أحب هذه الأرض ، وإن كان أحبها برقة ممزوجة بالازدراء .

واصل سرد لقائه مع الراجا فقال :

- « هكذا ظللت فى السجن ثلاثة أيام .. مكان قذر ولم أظفر بطعام كذلك .. أحدثت صخبا فجاءونى أخيرًا ببعض الأرز وسمكة مقلية صغيرة الحجم . تبًا لهم !.. لقد أسلمتهم مسدسى بمجرد أن طلبوه .. كنت أبدو كأحمق وأنا أمشى بمسدس خال من الذخيرة .. »

أشار (جيم) إلى جزء من السياج محطم فى الجهة الشمالية وقال :

ـ « من هنا وثبت هاربًا فى اليوم الثالث من سجنى .. لم يعيدوا إصلاح السياج .. وثبة ممتازة أليس كذلك ؟.. ثم عبرت هذا المستنقع لكنى سقطت فيه .. ظننت أننى انتهيت .. تركت حذائى هناك .. كنت أحاول الخروج وأنا أفكر فى مدى سهولة أن يخترق ضلوعى رمح هنا وأنا مقيد فى الوحل .. »

أعادوه للأسر حيث ظل فى غرفة ضيقة .. كان جائعًا برغم كل شىء وقد دارت بصدد مصيره مناقشات طويلة حامية مع الراجا . من حين لآخر يأتيه وغد يسأله :

ـ « هل الهولنديون ينوون الاستيلاء على البلاد ؟.. لماذا جئت هذا البلد التعس ؟.. الراجا يريد أن يعرف إن كان بوسع الرجل الأبيض إصلاح ساعة ؟ »

وبالفعل جاءوه بساعة صنعت فى نيوانجلند وقد حاول إصلاحها بسبب الملل وحده ..

كان يعانى بشدة .. وهكذا وجد نفسه من جديد وبلا أى تفكير يثب من هذا الارتفاع هاربًا .. طار من فوق رماح الحراس فى وثبة كادت تهشم عظامه فعلاً . أمامه كانت مجموعة من بيوت باتوسان على بعد 400 ياردة .. فقط عندما أدرك أنه لا يقدر على تحريك قدميه تقريبًا ، عرف أنه فعل ما فعل !

راح يعبر نهيرًا ويقبض على الوحل بيده .. يتعثر .. يسقط على رأسه .. يتذكر قاعة المحاكمة فيشعر أنه كان سعيدًا جدًا فى تلك الأيام !!..

بكى وشهق وسعل .. راح يتذكر الزنزانة والساعة .. ليته يقدر على العودة ! أخيرًا خرج من البركة واستلقى على الشط .. ينظر للسماء ولا يصدق أنه نجا .. لن يظفروا به إلا ببندقية بعيدة المدى ..

خطر له أنه بحاجة للنوم ، وبالفعل نام بضع ثوان .. ثم صحا ليجد أنه مغطى بالطين بالكامل . خطر له أنه الأبيض الوحيد وسط آلاف الأميال .. لا عون .. لا أحد يشفق عليه ..

ركض نحو البيوت فصرخت بعض النسوة وفررن يمينًا ويسارًا .. أما الشيوخ فتصلبوا وهم ينظرون له فى رعب .. كان فزعًا طائرًا .. لكنه استطاع أن يصرخ بكلمة واحدة :

ـ « دورامين ..! دورامين !! »

فقط سقط على الأرض وسمع صوت طلقات من بعيد . لكنه نجا . وهرعت زوجة (دورامين) العجوز تصب الماء البارد على رأسه وتسقيه كأنه ابنها . ثم اقتادته إلى الفراش وأراحته هناك .

كان زوجها تاجرًا محترمًا عظيم الهيبة فى باتوسان ، وقد انتخبته ستون أسرة (أى نحو ألفى شخص مسلحين بالخناجر) زعيمًا لها . وهؤلاء حزب معاد للراجا . الراجا كان يحاول احتكار التجارة وكانت منازعات تقع وإطلاق رصاص وقرى تحرق ، وكان رجال يؤسرون ويقادون للراجا كى يقتلهم بنفسه . لم يكن شىء يفوق توحش وجشع هذا الأخير سوى جبنه وخشيته من اتحاد الرجال ضده .

كان هناك تاجر عربى آخر قوى اسمه (الشريف على) يسيطر على قلعة تطل على البلاد ، وكان يحرض الأهالى ضد الراجا ، وقد خطر لكثيرين أن يتحالفوا معه ضد الأخير ، لكن (دورامين) منعهم من ذلك ..

هكذا كان الوضع عندما وصل (جيم) وعندما فر من سجن الراجا ..

الفصل الحادى عشر

عندما قابلت (دورامين) أحببته على الفور ، فهو رجل مرموق من المواطنين ، ضخم الجثة بالنسبة للملايو .. لكن هذا لم يجعله بدينًا بل جعله أسطوريًا . له عنق ثور ووجه مجعد مطمئن . شديد الهدوء أقرب إلى الخمول فلا يحرك طرفًا طيلة جلسته وهذا يجعله رمزًا للكبرياء ، لكن فى صوته الخفيض هيبة ولشخصيته تأثير سحرى . له ابن تجاوز العشرين من العمر ، فهو ليس طفلاً فى بلد يتزوج الجميع فيه فى سن السادسة عشرة .. لكن ابنه يحمل له احترامًا شديدًا ، وفى كل صباح ينزل إلى حيث يجلس أبوه فينحنى ويلثم يده فى إجلال .. وأبوه يمنحه يده كملك . كنت أعرف أن الأبوين يهيمان بابنهما حبًا وإن لم يظهرا قط ما يدل على ذلك ولم أرهما ينظران له قط . كان اسم الفتى كما أخبرنى جيم هو (دين واريس) وكان يعتبره ثانى أفضل صديق له بعدى .

لا أعرف السبب لكن الأبيض انجذب للأسمر بكيمياء غامضة جعلتهما صديقين حميمين . إن (دين واريس) كان شجاعًا بحق ذا روح صادقة أمينة .

عرفت هذا بينما جيم يشرف على عملية رفع المدافع فوق الجبل مع الرجال .. الغرض كان قصف مواقع الشريف على ..

كانت عملية شاقة لكن الرجال كانوا يثقون به .. لقد بدأوا يفترضون قدرات خارقة لديه وهذا أثار ضحكه ودهشته .. قال لى وهو يراقب العمل :

ـ « أنا غارق فى العرق والفجر قريب .. أخشى ما أخشاه أن أرتجف من البرد .. »

هكذا (جيم) .. لا يخاف مسئوليات العمل ولا نتائجه ، ولكن يخاف أن يرتجف أمام الرجال ..

لقد وثق فيه هؤلاء القوم كثيرًا ، وهو لم يخذلهم قط حتى هذه اللحظة ..

جواره كان صنو روحه (دين رايس) يضحك ولا يتكلم ، لكن جيم يخشى أن يبادله الضحك فيرتجف .

أمس جاءه أحمق من قرية مجاورة يطلب مشورته فى تطليق زوجته .. تزوجها منذ عشرين عامًا .. زوجة طيبة .. يضربها قليلاً .. ثم كبرت وشاخت وأقرضت تلك الآنية النحاسية لابنة أختها .. لم تطلب رأيه .. النتيجة أن الآنية فقدت للأبد ..

ـ « ليس الأمر مضحكًا كما يبدو لك .. »

كان عليه أن يقطع مسافات كبيرة ، ويصلح بين الكثير من الأطراف ويعيد للرجل آنيته النحاسية حتى لا تحدث حرب أهلية ..

خادم جيم كان اسمه (تام إيتام) وهو من الملايو .. غريب عن البلدة وقد استبقاه الراجا ليجعله يجدف فى أحد قواربه . وقد فر عند أول فرصة ليلتحق بخدمة جيم . أسمر له عينان جاحظتان محتقنتان بلون اصفر ..

كان معروفًا بشراسته فى القتال ، وقد أبلى الرجال بلاء حسنًا فى هذه المعركة وقصفوا عددًا من حصون الشريف على من موضعهم المرتفع هذا .. وسمع (دورامين) الأخبار وعرف أن ابنه بخير فحاول النهوض فلم يستطع ..

كان جيم فى حالة لا توصف من الفرحة والانتشاء .. الكلمات لا تقدر على التعبير عن حالته .

إن شهرته تتعاظم .. صار رجلاً من هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع مقارنتهم إلا بمجدهم الخاص ، وكان عليك أن تجدف بالقارب مسافة طويلة جدًا كى تصل لمكان لم تبلغه شهرته . شهرة قوامها السيف الذى يؤكد وجوده فى كل يوم ..

كان جيم يتقاسم شيئًا مع ذلك الصمت الذى يصاحبك نحو أعماق مجهولة .. يمتزج مع همسات العجب والغموض على شفاه الرجال ..

لقد فر (الشريف على) المهزوم من البلاد وإن عزم على الانتقام ، وعاد القرويون إلى بيوتهم المهدمة ، لهذا كان جيم هو الذى أعاد تنظيمهم بمساعدة (دين رايس) وعين كبراء القرى ..

أماعن شعور الراجا (ألانج) عندما سمع قصف المدفعية ، فقد رقد على أرض كوخه البامبو وراح يرتجف ويقول كلمات مختلطة ، فلم يجرؤ أحد على الاقتراب منه أقرب من رمح واحد لمدة يوم ونصف .. كان يرى بوضوح أنه سيطرد من باتوسان .. سيعيش بلا ماله ولا نسائه ولا أفيونه فريسة سهلة لأول من يريد قتله .

فى الحقيقة كان (دورامين) يحتفظ بطموح مجنون أن يرى ولده حاكمًا لباتوسان .. كان ببدانته وعينيه الصغيرتين يذكرك دومًا بفيل عجوز .. حركة صدره المكتنز أثناء التنفس .. صوته الهادئ الغليظ .. كلها تذكرك بميلاد عاصفة رعدية .. وكانت ثقة الرجل كبيرة بـ (توان جيم) . لكنه قال لى إن الله خلق الأرض لتبقى للأبد بينما الرجال البيض يأتون ويرحلون .. ولن يلبث جيم هذا أن ..

هنا قلت له فى حدة :

ـ « لا .. لا .. لن يرحل .. »

نظرت لى زوجته العجوز التى تشبه الساحرات وسألتنى عن السبب الذى جعل جيم يترك بلاده ويسافر كل هذه المسافات ليعيش هنا .. أليس له أصدقاء ؟.. أليست عنده أمٌ عجوز تبكى وتتذكر وجهه ؟

هذه أشياء يطول شرحها على كل حال ..

وماذا عن وقوع جيم فى الحب ؟ . أنتم لا تصدقون وتعتقدون أنها مجرد شهوة عابرة أخرى .. لكننى أجدها شيئًا جديرًا بالذكر ..

لم يكن لدى زوجة (كورنيليوس) من رفيق تسكن له سوى ابنتها .. لا أعرف كيف تزوجت المرأة المسكينة ذلك الوغد البرتغالى من ملقة بعد طلاقها من أبى ابنتها . أعرف مما حكاه (شتاين) أنها لم تكن امرأة عادية .. لما ماتت المرأة عاشت الابنة وحيدة .. هنا جاء جيم ..

جيم كان ينادى الفتاة باسم قريب جدًا من (يا غالية) .. (يا جوهرتى) .. وكان ينطقها بتلقائية وبلا افتعال .. لقد قابلتها ..

طيف أبيض ووجه كوجه طفل رقيق .. تخرج من غرفة داخلية كأنها طير يغادر عشه ..

وعرفت فيما بعد أن الإشاعات تملأ المنطقة كلها خاصة بين البحارة البيض ، عن رجل أبيض جيم جاء إلى باتوسان ووجد جوهرة عظيمة القيمة ، وهو يخرج دومًا مع فتاة جميلة يتأبط ذراعها ويقال إنها تخفى هذه الجوهرة فى صدرها ..

كل هذا كان خطأ فيما عدا أن جيم وقع فى الحب فعلاً .. لم يخف جوهرته بل كان فخورًا بها .. والجوهرة كانت الفتاة .

الآن فقط أتذكر أننى لم أرها كثيرًا .. فقط أذكر بشرتها ذات اللون الزيتونى الشاحب .. كانت أحيانًا تجلس لتتابع كلامنا بعينيها الواسعتين كأنها ترى كل كلمة من كلماتنا .. كانت تعرف بعض الإنجليزية من جيم وكانت تنطقها بطريقته الطفولية المسلية . كانت تغطيه برقتها كأنها جناح يرف فوقه ، وتغار عليه لكن من أى شىء ؟ لا أعرف .. ربما تغار عليه من الأرض أو الناس ..

أنا رأيت ذلك البرتغالى كورنيليوس الذى كان زوج أمها .. كان قد انتقل ليقيم عند (دورامين) وبالتالى هو تحت نوع من الحماية . كان رجلاً خسيسًا .. يغضب بخسة .. يبتسم بخسة .

يحزن بخسة .. أنا متأكد من أن حبه كذلك خسيس .. حتى الشخص الحقير يبدو نبيلاً بجواره ..

كان يعامل الفتاة البريئة بقسوة ويصر على أن تناديه بابا . وباحترام كذلك . لكنه لم يضربها لأنه أجبن من ذلك .

كان قذرًا كذوبًا وكلما انتقد الناس شيئًا فيه قال إنها غلطة زوجته الميتة .. حتى إن جيم منعه من ذكر زوجته الميتة بأية كلمة .

الفصل الثانى عشر

ازداد تعلق (جيم) بالفتاة بعد ما أنقذت حياته من محاولة اغتيال .. لقد أيقظته ذات ليلة وهى تحمل المشعل ، وأخبرته أن هناك بعض رجال فى المخزن .. هكذا هرع إلى هناك وهى تسبقه بمشعلها .. استطاع أن يرى رجلاً من الأهالى يحمل خنجرًا .. أرداه صريعًا بطلقة واحدة فى رأسه .. هنا خرج أربعة رجال مذعورين يتوسلون له كى يبقى على حياتهم ..

اقتادهم تحت تهديد السلاح إلى النهر ، والفتاة تتبعه حاملة المشعل .. وأرغمهم على الوثب فى الماء .. وهتف :

ـ « أبلغوا تحياتى للشريف علي"

وهكذا ابتعد الرجال ، أما هو فنظر للفتاة .. شعر أن قلبه يتضخم بحيث بلغ حلقه فلم يعد قادرًا على قول شىء .. طوحت بالمشعل فى الماء فضمها له وهمس أنه لن يتركها فى عهدة كورنيليوس بعد اليوم .. وارتجف .. شعرت به يرتجف ..

كانت فكرة مغادرة هذا المكان والعودة للعالم الخارجى تزداد استحالة يومًا بعد يوم . العالم الخارجى صار مستحيلاً بالنسبة له ، خاصة أنه لم ينس لماذا جاء هنا ..

فيما بعد قال لى :

ـ « هؤلاء القوم يعتبروننى بطلاً ويقدسوننى .. لكن برغم هذا لن تقبل أن أعمل على سفينة تخصك .. »

ـ « هلا كففت عن هذا ؟ »

وتركته يقوم بجولته الليلية مع خادمه .. وعدت لمقر إقامتى . هنا فوجئت بالفتاة تقطع على الطريق .. لم أكن أتبين فى الظلام سوى أسنانها البيضاء وعينيها الواسعتين .. وكانت تطلب .. بل ترجو ..؟ بل تتوسل .. هى تعرف أن الفتى قادم من أصقاع بعيدة نائية لا تعرف عنها شيئًا ، لكنها تعرف أن هذه الأصقاع تسترد أبناءها دومًا ، وقد بدا لها أننى جئت من هذه البلاد النائية كى آخذ جيم معى .. لابد أنها كانت تفقد عقلها رعبًا أثناء محادثاتى الطويلة الهامسة مع جيم ..

تأثرت جدًا من صغر سنها .. من سذاجتها .. . من جهلها .. من جمالها البارع الذى يحمل كل محاسن زهرة برية . لكنها لا تفهم أن العالم الخارجى لا يعبأ بجيم ولا يريده فى الواقع . بذلت جهدًا جهيدًا لأقنعها أننى لم آت لآخذ جيم ولكن جئت بداعى الصداقة .. لأعرف أخباره .. . ربما لأطمئن على أنه لن يرجع ..

كانت تعرف الأخطار المحدقة به .. تعرفها أفضل منه بكثير ..

لم تكن تؤمن بقدرته على النصر .. كل الناس هنا كانوا لا يؤمنون بنصر جيم ، وحتى الشريف على نفسه كان يحتقر هذا الأبيض .. سوف يغتال أحدهم جيم يومًا .. ولن تكون للموضوع أهمية ..

فى تلك الليل جوار النهر ركعت على ركبتيها أمامه وتوسلت له أن يرحل .. لما أبديت دهشتى من هذا الكلام الغريب قالت لى :

ـ « لم أرد أن أموت وأنا أبكى .. »

خيل لى إننى أسأت الفهم فقالت :

ـ « مثل أمى .. أمى بكت كثيرًا قبل أن تموت .. »

كانت تكشف لى عن عالم قاس يحاول المرء أن يتوارى عنه ، كسلحفاة تلجأ لأمان درقتها .. قالت إنه أقسم لها إنه لن يتركها أبدًا مهما حدث .. ثم أضافت وهى تشهق :

ـ « رجال آخرون وعدوا بذلك .. أبى وعد بذلك ! »

ثم سألتنى :

ـ « هل هو أفضل من الرجال الآخرين ؟ »

ـ « أقسم بشرفى أنه كذلك .. »

ـ « وهل هو أكثر منهم صدقًا ؟ »

ـ « نعم .. ليس هنا أحد يمكن أن يشك فى صدقه .. وهو كذلك أشجع .. لن يجعله الخوف يتخلى عنك أبدًا .. »

قالت فى رعب وثوبها الأبيض يتألق فى الظلام ، بينما أغنية اندونيسية ما تأتى من الأكواخ :

ـ « ما هذا الذى يفزعه ؟ من يطارده ويجعله يصرخ أثناء نومه ؟.. هل هذا العدو المخيف حى أم ميت ؟ »

قلت لها :

ـ « اسمعى .. أنت ترينه الأشجع والأذكى والأقوى فلماذا لا تفترضين كذلك أنه الأكثر صدقًا ؟.. صدقينى هذا العالم الخارجى كبير جدًا ولا يذكر من هو جيم ولا يريده أصلاً .. لن يفتقده أحد هناك .. أنا سأرحل غدًا ولن ترى وجهى أبدًا .. »

كان منطقى هذا مقنعًا لكنه بدا لى غريبًا ومن الصعب أن أقوله عن أى شخص ..

عادت تسألنى فى إلحاح وهى تمسك ذراعى بأقوى ما تستطيع :

- « قل لى لماذا لن يفتقده أحد ؟ »

هنا انفجرت فيها :

- « تريدين معرفة السبب ؟.. لأنه ليس جيدًا بما يكفى .. لا يوجد أحد جيد بما يكفى ! »

وتوقفت عن الكلام لأننى سمعت صوت خطوات (جيم) ..

الفصل الثالث عشر

فى الصباح التالى ومع أول انحناءة من النهر ، تلاشى عن ناظرى كل هذا .. بلونه ومغزاه .. كأنه صورة على لوحة قماشية .. بعد تأمل طويل تدير لها ظهرك لآخر مرة ، لكنها تبقى فى ذاكرتك لا تبهت وإن كانت بلا حياة . تجمدت عواطف الخوف والأمل كما هى فى ذاكرتى .

كنت عائدًا بعيدًا عن الصورة إلى عالم تجرى فيه الأحداث ويتغير الناس وتلتمع الأضواء . الحياة تتدفق كتيار مائى لا يهم إن كان يجرى فوق صخور أم فوق أوحال . لكن ما تركته خلفى لن يتغير ..

(دورامين) المجيد حيث هو وزوجته التى تشبه الساحرات بطموحهما الأبوى ، وتنكو (ألانج) و(دارين واريس) ، والفتاة العاشقة الخائفة ... أثق بوجود هؤلاء لأنهم تحت عصا الساحر ، لكنهم يلتفون حول شخص واحد لا أثق أن يظل حيث هو .. لا أثق فى عصا ساحر تبقيه فى مكانه .. لقد كان واحدًا منا ..

لقد رافقنى جيم فى الجزء الأول من رحلتى ، وكانت فكرة الفراق تخيم علينا فعلاً .. لهذا لذنا بالصمت أكثر الوقت ..

بالفعل كنت أشعر بذلك الذى تكلمت عنه الفتاة .. إن الوطن يناديني .. نظرت لذلك التعس الجالس جوارى وقد سقط رأسه على صدره وتذكرت أنه لن يعود أبدًا ..

عند الشط ذى الرمال البيضاء استوقفنا ذلك العجوز وولده .. راح يشير نحو (جيم) ويتكلم بلا انقطاع .. إن الراجا لن يترك الفلاحين وشأنهم .. هناك مشكلة حول مجموعة كبيرة من بيض السلاحف قام الوطنيون بجمعها والراجا يعتبرها ملكًا له . طلب منهما جيم الانتظار فلسوف يصغى لهما حالاً ، فابتعد الرجلان فى طاعة وجلسا القرفصاء وقد وضع كل منهما المجداف على الرمل أمامه . التفت لى (جيم) وقال :

ـ « المشكلة أن كل هؤلاء الصيادين يعتبرون عبيد الراجا .. »

ـ « وأنت غيرت هذا »

ـ « نعم .. وقد أعاد لى هذا الكثير من ثقتى بنفسى .. لكن يجب ألا أنسى أنه لا مكان لى هناك .. »

ونظر إلى الرجلين وهمس :

ـ « لا أستطيع تخيل ما قد يحدث لو تركت هذا كله وعدت .. الجحيم !.. لابد أن أبقى وأن أذهب غدًا للقاء ذلك الراجا وأجازف بشرب قهوته التى قد تكون مسمومة .. سأكلمه عن موضوع بيض السلاحف هذا .. لكن متى أراك ثانية ؟ »

قلت من دون أن أنظر فى عينيه :

ـ « لن نلتقى أبدًا .. ما لم ترحل عن هنا بالطبع .. »

قال بعد صمت :

ـ « إذن هو الوداع .. ربما كان هذا أفضل .. »

واستدرت لأركب القارب الذى ينتظرنى . فلحق بى حتى بلغت المياه ساقيه وصاح :

ـ « قل لهم فى الوطن .. »

أصخت السمع .. أقول لمن ؟.. كانت عيناه تواجهان قرص الشمس بالضبط وهو يقول :

ـ « لا .. لا شىء .. »

وابتعد القارب نحو السفينة الكبيرة التى كانت ستحملنى .. وقد غربت الشمس .. صار الأفق الغربى شريطًا من الذهب وسط الظلام فلم يعد من جيم سوى شبح على الشط ..

لقد نهض الصيادان بمجرد رحيلى ، وراحا يسكبان تعاستهما على مسمع السيد الأبيض . بسبب سواد بشرتهما كانا أول من اختفى فى الظلام قبل سيدهما ، الذى كان أبيض من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . لهذا بدا كأنه يمتص كل الضياء الباقى فى العالم ..

وسرعان ما غاب عن عينى ..

الفصل الرابع عشر

عند هذا الحد أنهى (مارلو) قصته غير المكتملة ، وراح الجالسون يحدقون فى الفراغ شاردين يسترجعون ما قال ..

كان هناك واحد بين الموجودين عرف الكلمة الأخيرة فى القصة بعد عامين . وقد وصلته على شكل طرد عليه كتابة بخط مارلو نفسه . فتح الطرد ورأى ما فيه ثم اتجه إلى النافذة .. راح يراقب الطرقات التى يغمرها المطر ثم جذب الستار ليغلقه ..

هناك يستقر هذا الطرد تحت المصباح الخافت ، والساعة تردد بلا انقطاع : لا مزيد .. لا مزيد ..

تنهد وهو يستعيد ذكريات الأحراش والمستنقعات والأكواخ البعيدة .. ثم جلس ليقرأ ..

ـ « لا أحسبك نسيت .. فأنت بالذات أبديت اهتمامًا تجاوز قص تلك القصة .. لكنك لم تعتبر جيم قد سيطر على مصيره بعد .. توقعت له الإنهاك والزهد فى الإعجاب الذى يتلقاه من الشباب . قلت إنك تفهم هذه الأمور جيدًا .. يجب أن نؤمن بجدوى ما نفعله حتى نتحمل أن نضحى من أجل الآخرين ، وإلا فالتضحية مجرد نسيان .

ولصار المنح مجرد وسيلة للهلاك . لا أجزم بشىء .. هناك الكثير من الصدق فى عبارة (تحت سحابة) .. (جيم) كان تحت سحابة .. من الصعب أن تراه بوضوح خاصة لو كانت نظرتنا الأخيرة له عبر عيون آخرين ..

« أعتقد أنه كان فى طريقه نحو الاختبار الأكبر الذى أعتقد أنه كان ينتظره .. تذكر أننا فى وداعنا الأخير طلب منى : قل لهم .. ثم توقف .. وفجأة قال : لا شىء ..

« كان يحاول أن يكتب .. هل رأيت الورقة التى كتب عليها : (الحصن ـ باتوسان) ؟.. أعتقد أنه جعل بيته قلعته الأخيرة .. خندق وجدار من التراب عليه سياج وبنادق على منصات تمسح المنطقة كلها . دورامين هو الذى جلب له تلك البنادق . كان يعتمد على من أسماهم (قومى) .. إنهم أسرى (الشريف على) الذين حررهم ، وقد أقاموا قرى وتجمعات تحت الحصن . فى هذه الورقة كتب : لابد أن .. ثم سقطت الريشة منه وتناثر الحبر .

« سوف تجد ضمن الأوراق خطابًا عتيقًا جدًا كتبه أبوه .. لابد أنه تلقاه قبل أن يلتحق بالباتنا بأيام معدودات .. لابد أنه آخر خطاب من أسرته .. العجوز كان يهيم حبًا بابنه كما هو واضح . أربع صفحات من الحب الأبوى الخالص .. يمكنك أن تتخيل

العجوز فى مكتبه الذى قضى فيه أربعين عامًا يكتب المواعظ ويحلم بالطريقة الأفضل للموت .. هناك إيمان واحد .. هناك فضيلة واحدة .. هناك ميتة واحدة ..

« الأم والأخوة بخير .. لا تقلق ..

« من جديد أستعيد منظر جيم حيث وقف .. هو الشىء الوحيد الأبيض على الشط .. تحت سحابة ..

« فى الصفحات التالية سوف تجد باقى القصة وعليك أن تعترف بأنها رومانسية بما يفوق أحلامك . شىء من هذا القبيل كان محتم الحدوث ..

« برغم هذا هناك الكثير من المنطق فيه ..

« يبدأ كل شىء بملحمة قام بها رجل وغد يدعى (براون) .. سطا بنجاح على سفينة شراعية اسبانية فى ساحل صغير قرب (زامبوانجا) . قابلت هذا الرجل وعرفت بين أنفاسه المتقطعة بفعل الربو آخر أخبار جيم .. كان على أن أتحمل عينيه الذابلتين الشبيهتين بقدم الغراب كى أعرف ..

قال براون المحتضر :

ـ « ما إن رأيته حتى أدركت أى أحمق هو .. رجل ؟.. هو ؟.. لقد تحدانى لكن لم يكن فى داخله ما يكفى من الشياطين ليقضى على .. سوف يقتلنى الربو لكنى سأموت راضيًا فقد هزمته .. »

« كنت قد وجدت هذا الرجل فى بانجوك .. دلنى عليه رجل أبيض يدعى (شومبرج) أراد بعض الشرف بأن يستضيف عنده (براون) الشهير فى آخر أيامه .

« كان يتكلم كالمحموم .. ومن حين لآخر ينظر لى بحزن وغضب .. كأنه يخشى أن أملّ وأنصرف قبل أن يحكى لى القصة .. مات ليلتها لكن لم يكن عنده وقتها ما يحكيه(*) ..

« قبل هذا بفترة كنت أزور (شتاين) عندما قابلت عنده أحد أهالى الملايو .. كان هذا (تام أيتام) خادم (جيم) المخلص .. فسألته فى حماسة :

ـ « هل (توان جيم) هنا ؟ »

قال :

ـ « لا .. »

وتدلى رأسه للحظات ثم قال بجدية :

ـ « هو لن يقاتل .. لن يقاتل .. »

(*) لا يوجد قطع هنا .. هى قفزة من قفزات كونراد المعتادة التى يستكملها فيما بعد .

لم يبد أنه قادر على قول شىء آخر فدفعته ودخلت ..

وقف (شتاين) فى وسط الغرفة طويلاً محنى القامة ، فقال لما رآنى :

ـ « آخ .. هأنتذا يا صاحبى .. تعال .. »

قلت :

ـ « لماذا يقف (تام إيتام) بالخارج ؟.. »

ـ « تعال لترى الفتاة .. إنها هنا .. جاءا منذ يومين .. أنا عجوز ولا أقدر على عمل الكثير .. القلوب الصغيرة لا تتسامح .. إن فيها قوة هائلة .. »

ومشيت خلفه فى البيت ، وهو يقول :

ـ « لقد أحبها كثيرًا .. »

هززت رأسى موافقًا وشعرت بمرارة لأننى لا أملك ثقة بنفسى تكفى للكلام .

ـ « خائفة جدًا ولا تثق بى .. أنا بالنسبة لها مجرد عجوز غريب .. على الأقل هى تعرفك .. قل لها أن تسامحه .. »

ـ « بالتأكيد .. »

قلتها وأنا أشعر أنى فى الظلام تمامًا ولا أفهم أى شىء .. فتح الباب ودفعنى للداخل ..

أنت تعرف أن بيت شتاين كبير مريح رطيب . رأيت فى غرفة منه الفتاة جالسة على منضدة من الماهوجنى وقد أراحت رأسها بين يديها . انعكست صورتها على الأرض المطلية بالشمع كأنها على صفحة بحيرة . رأتنى فرفعت رأسها ..

قالت لى :

ـ « لقد تخلى عنى .. كلكم تفارقوننا من أجل أغراضكم .. »

بدا كأن كل الوهج فى وجهها توارى فى موضع سحيق من صدرها ..

ـ « كان من السهل أن أموت معه .. كنت أنا من وقف أمامه وأنا من نظر له .. أنتم خونة قساة بلا عاطفة .. ما الذى يجعلكم بهذه القسوة أم أنكم جميعًا مجانين ؟ »

تناولت يدها فلم تقاوم ، ولما تركتها سقطت .. هذا مرعب أكثر من أية دموع ..

سمعت كل شىء .. وشعرت بشفقة عظيمة عليها .. وعليه كذلك ..

ـ « كنت جواره أمسك بيده ، لكنه لم يرنى .. أصابته لعنة القسوة التى تصيبكم جميعًا فلم يعد يبالى بأمرى .. تركنى كأننى أسوأ من الموت .. كأنه يفر .. »

انحنيت وتركتها هاربًا ..

خرجت إلى حديقة (شتاين) التى جعلها متحفًا لكل أنواع نباتات المناطق الحارة . مشيت هناك بعض الوقت عاجزًا عن التفكير ، وهناك بين الأشجار رأيت شتاين نفسه بين الأغصان مع الفتاة يضع يده على كتفها فى رفق أبوى ، ويردد :

ـ « هذا فظيع .. ماذا بوسعنا أن نفعل ؟ »

قالت الفتاة :

ـ « ما الذى فعلته أنا ؟.. لقد كان مثل الآخرين .. »

صاح شتاين وهو يضرب على يدها :

ـ « لا يا صغيرة .. لا .. لا .. يومًا ما ستفهمين .. »

كان ثوبها الأبيض يزحف من خلفها وشعرها الأسود حر على ظهرها ، وهى تمشى فى خفة جوار الرجل . السماء رمادية تمامًا وهو مشهد غير معتاد فى المناطق الحارة .

لشد ما تغيرت الفتاة بعد الكارثة ولشد ما تغير (تام إيتام) .. لقد صار أقرب إلى الثرثرة .. »

هنا انتهى جزء الخطاب الذى تمت كتابته بقلم (مارلو) .

الفصل الخامس عشر

توقف الرجل الذى أسعده الحظ بمعرفة باقى القصة عن القراءة ، واقترب من النافذة ليلقى نظرة عابرة على المدينة ، كأنه حارس فنار يطل على البحر ، ثم عاد يتصفح الأوراق :

« كما قلت لك ، فكل شىء يبدأ بالرجل المدعو براون .. الكل يعرفه على سواحل أستراليا . ما يحكى عنه كان كافيًا جدًّا للشنق لو أنك حكيته فى المكان الصحيح . المؤكد أنه طرد من سفينة كانت تنقب عن الذهب ومنذ ذلك الحين صار الرعب الدائم فى بعض جزر بولينزيا . كان يسطو على السفن ويقطع الطريق وكان يسلب الأبرياء مالهم ثم يدعوهم لمبارزة بالمسدسات على الساحل ، وهى مبارزة معروفة النتيجة . كان يحتقر ضحاياه بشدة .. يحتقر الجنس البشرى كله .

خرج من حياته هذه بكيس ملىء بعملات فضية أخفاها على حد قوله حيث لا يستطيع الشيطان أن يشمها . وقد فر من محاولة القبض عليه بسفينة إسبانية .. الحقيقة أن الرجل لم يكن يخاف الشنق ، لكنه كان يخشى السجن بجنون كما يفعل

شخص بدائى يخشى الأشباح .. لهذا فر مع طاقم من اثنى عشر مغامرًا ..

أعتقد أنه سمع عن باتوسان أو رأى اسمها بحروف صغيرة على خارطة ما .. غالبًا قرر أنها بلا حماية وبعيدة عن السفن الحكومية والبرقيات ..

كان الأمر مسألة حياة أو موت .. الحرية !.. فى باتوسان سوف يجد أرزًا وبطاطس ولحمًا .. ومن يدرى ؟.. ربما بعض المال كذلك !.. ربما أمكن السطو على بعض القرى ..

كان حظه حسنًا والطقس مواتيًا .. لهذا خلال أسبوع كان قد رسا بسفنه عند (باتو كريج) على مرمى حجر من قرية الصيادين ..

هبط 14 رجلاً فى قارب كبير من السفينة الشراعية قاصدين النهر . وبقى اثنان معهما ما يكفى من طعام لمدة عشرة أيام . أربعة عشر رجلاً يبدون كخيالات المقاتة وهم يلوحون ببنادقهم .

صمت عميق .. مساحة المكان أثارت دهشة (براون) .. وخطر له أن ينزلوا فى مركز البلدة قبل أن يحاول السكان

المقاومة . لكن من الجلى أن زعيم القرية نجح فى إرسال إشارة استغاثة ..

حينما بلغوا المسجد الذى بناه دورامين كانت الساحة أمامه مليئة بالرجال .. دوت صرخة ثم دق (الجونج) عبر النهر كله .

ومن فوق هوت قذيفتان فى الماء ليتناثر الرذاذ فى ضوء الشمس .

وانهال وابل من الطلقات من زحام الواقفين أمام المسجد ، ومن الضفتين .. رد رجال (براون) بالنيران ..

وتوارى القارب تقريبًا وسط الدخان ، وبدأ يدور حول نفسه ..

صرخات الغضب .. ودقات الجونج .. وأصوات الطلقات .. بينما جلس براون فى القارب مليئًا بالغضب والغيظ من هؤلاء القوم الذين تجاسروا على الدفاع عن أنفسهم ..

وأدرك أن قاربين يقطعان عليه خط التراجع . بل ستة قوارب مليئة بالناس ..

هنا رأى مدخل النهير (الذى وثب فوقه جيم أثناء الهرب) فدخل بقاربه فيه ، وترجل الرجال .. وسرعان ما اتخذوا مكانهم على هضبة صغيرة قرب السياج . كانت هناك أشجار على قمة

الهضبة فقطعوها بينما ظلت قوارب الراجا فى النهر فى حيادية غريبة ..

عندما غربت الشمس أمر براون رجاله بأن يحرقوا العشب حول موقعهم ، فتصاعدت ألسنة اللهب . وزحفت حتى توقفت قرب سياج قصر الراجا . كانت السماء مزدانة بالنجوم بينما العشب المحترق يقعقع .. وهبت ريح أطارت كل شىء ..

توقع براون هجمة أخرى بمجرد أن يرتفع المد . لكن لم يحدث شىء وظل يرى الأضواء من قوارب الراجا فى النهر ..

رقد الرجال على بطونهم خلف جذوع الأشجار التى قطعوها وراحوا يرمقون البلدة ، التى لم يتصوروا أنها بهذه الضخامة وقد امتلأت بالرجال الغاضبين .. ولاذوا بالصمت .. لم يكن هناك صوت سوى طلقة من حين لآخر .. لكن هذه الضوضاء لم تمسهم هم كأنهم ماتوا فعلاً ..

الفصل السادس عشر

لم يكن جيم موجودًا وقتها ، بل كان فى داخل البلاد يدبر مسألة ما ، لذا وقعت مهمة الدفاع ضد الرجال على (داين واريس) هذا الشاب الشجاع البارع ابن دورامين ..

كان يتمنى تسوية الأمور بنفسه ، لكن قومه كانوا أكبر من قدراته .. لم يكن يملك نفوذ ومهابة جيم باعتباره رجلاً أبيض خارقًا للطبيعة لا يقهر . ولم يكن تجسيدًا للنصر مثله ..

كانوا يحبونه ويحترمونه لكنه ظل واحدًا منهم بينما جيم كان واحدًا منا ..

كان رجال البلدة يؤمنون أن الرجل الأبيض لا يموت ..

إن طلقات عصابة (براون) كانت دقيقة أو محظوظة ، إلى درجة أنها أصابت نصف دستة من الرجال .. وقد تم إرسال النسوة والأطفال إلى الحصن ، هناك كانت (الجوهرة) هى القائدة ببراعة وحسم ، وكان رجال جيم يطيعونها .. حتى النهاية كانت تؤدى واجبها بروح شبه عسكرية .

ما إن ظهر الخطر حتى هرع (واريس) لها لأن جيم كان الوحيد الذى يملك مخزونًا من البارود ، وقد جلبه له (شتاين)

بإذن خاص من الحكومة الهولندية . عقدوا اجتماعًا فى مقر جيم فى الحادية عشرة مساء ، وباعتبار الخطر عامًا جاء ممثل عن الراجا هو (قاسم) ..

كثرت الإشاعات ومن بيها إشاعة عن سفينة كبيرة سوف تأتى فى أثر هؤلاء ، عليها بحارة بيض قساة مسلحون ، وسوف تقصف المدينة بالمدافع وتستولى عليها .

جاء (دورامين) طبعًا بصعوبة شديدة ومعه آخرون .. وكان رأى من يدعى (حاج سونان) كما يلى :

ـ « هؤلاء الرجال الأوغاد أمرهم منتهى .. سوف يبقون حيث هم ويموتون جوعًا ، أو سيحاولون الفرار إلى قاربهم .. وهكذا يتعرضون لرصاصنا .. فى كل الأحوال لا داعى للاشتباك معهم فى معركة .. »

رأي (دورامين) أن على ابنه أن يأخذ مجموعة من الرجال إلى جنوب باتوسان لمراقبة النهير وسده بالقوارب .. تحسبًا لقدوم رجال بيض آخرين .. لا أعتقد أن (دورامين) كان يتوقع قدوم آخرين ، لكنه أراد أن يبعد ابنه عن موقع الخطر ..

اتفقوا كذلك على ترك قارب القراصنة سليمًا لعل هذا يغريهم بمغادرة مكمنهم من ثم يصيرون فريسة سهلة للنيران .. وانطلق عدد كبير من الرسل بحثًا عن (جيم) الذى لا يعرف أحد أين هو ..

انطلق مندوب الراجا مع البرتغالى الوغد (كورنيليوس) لإجراء مفاوضات مع (براون) ..

سمع براون من يناديه بالإنجليزية قائلاً إنه يحمل رسالة مهمة لكنه يطلب ضمان سلامته . سرَّه هذا كثيرًا لأنه أشعره بأنه ليس مجرد وحش محاصر ينتظر الموت .. هناك تفاوض وحوار ..

وسمع من يقول :

ـ « أنا رجل أبيض مسكين أريد الكلام معكم .. »

واقترب كورنيليوس بثيابه المعتادة : القميص الممزق والسروال المتسخ .. حافى القدمين يضع قبعة من قش على رأسه . فقال له براون :

ـ « اقترب .. أنت فى أمان . لكن تعال وحدك .. »

وهكذا راح كورنيليوس يتكلم .. بعد نصف ساعة فهم (براون) كل شىء عن باتوسان . طلب بعض الطعام أولاً كدليل على النوايا الحسنة ..

هكذا عاد كورنيليوس .. وبعد قليل جاء بعض خدم الراجا يحملون الأرز والسمك المجفف .. جاء (قاسم) مندوب الراجا بعد قليل بشوشًا وقد التف بملاءة زرقاء وانتعل صندلاً ، وبدأ التفاوض مع براون .

كان قد أدرك على الفور أن هؤلا الرجال منبوذون بلا وطن .. وبدأ يطرح فكرة على المعتدين هى أن يسيطروا على البلد قبل أن يعود جيم .

كان براون يصغى فى اهتمام .. لقد جاء هنا كى يسرق بعض الطعام وربما بضعة أطنان من المطاط أو الصمغ .. الآن بعد هذه المحادثات يفكر جديًا فى سرقة البلد بأكمله .

عندما جاءت الظهيرة جاء المزيد من الطعام وبعض الأغطية وحشايا النوم .. هكذا تمكن الرجال من النوم تحت الظل .. وراح براون يتساءل :

- « اسمه (جيم) ؟.. (جيم) ؟.. هذا ليس كافيًا ليكون اسمًا .. هل هو بريطانى ؟.. أى نوع من الناس هو ؟ »

قال له كورنيليوس :

- « هو بريطانى .. يسمونه (توان جيم) أى ما معناه (لورد جيم) .. هو أحمق وسوف تقتلونه بسهولة"

لكن براون قدر أن الفتى ذكى وبارع .. ما دام استطاع السيطرة على الأهالى بهذه السهولة . كان يحلم بأن يسوى حسابه مع هذه البلدة التى تحدته .. يرى الجثث فى الطرقات والنيران فى كل مكان ..

إن التحالف مع (قاسم) قد يكون مفيدًا ، لكن من الأرجح أنه سينهيه بطلقة فى رأسه عندما تستقر الأمور .

عبر الشارع مشى رجل وحيد جوار السياج يحسب نفسه آمنًا ، رآه (براون) فأشار لصاحبه وهو جندى هارب من الجيش الأمريكى وأشار للرجل .. ابتسم اليانكى وقد فهم المطلوب منه .. ركع على ركبة واحدة وأحكم التصويب وأطلق بندقيته العتيقة . سمع الرجل صوت الطلقة وبدا مترددًا للحظة ثم سقط على يديه وركبتيه . حاول أن يحرك أطرافه ثم همد تمامًا .

قال اليانكى :

ـ « صحة هذا الرجل لن تضايقه أو تضايق رفاقه بعد اليوم"

قال براون :

ـ « هذا يريهم ما بوسعنا أن نفعل .. نزرع خوف الموت المفاجئ فيهم .. »

كانت نسبة الأهالى لهم مائتين لواحد .. هذا القتل يعطى الأهالى ما يفكرون فيه الليلة . لابد من زرع الرعب فى نفوسهم .. الرعب .. الرعب ..

هكذا انصرف (قاسم) راضيًا عما تم ، وقرر أن يكلم (واريس) عن سفينة عملاقة مسلحة بالمدافع قادمة لتنقذ هؤلاء القراصنة .

إن مصنع الطمأنينة الذى أنشأه جيم .. المصنع الذى يضمن للناس شيخوخة هادئة وثقة بالغد .. هذا المصنع بدا موشكًا على التهاوى الليلة . وذهب بعض كبار السن ليظهروا إخلاصهم للراجا فعاملهم الحراس بغلظة . والراجا نفسه كان مذعورًا لا يعرف ما يفعله فاكتفى بطردهم لأن أيديهم خالية .

جاء الليل وفى الظلام توارى جسد الرجل القتيل الذى تركوه على الأرض بذراعين ممدودتين كأنه مصلوب .

ظل براون ساهرًا وقد بدأت ثقته الأبدية بنفسه تهتز .. فجأة شعر بأنه يضرب رأسه فى جدار صخرى . لو أراد الهرب للقارب فلسوف يكون عليه أن يجتاز النهر بما فى ذلك من خطر ، ثم المحيط حيث الموت جوعًا .

لو ركضوا للشارع فلسوف يقتلونهم بالرصاص كالكلاب . هنا تذكر موضوع التبغ .. هناك تبغ فى القارب الذى تركوه . طلب من أحد رجاله وهو بحار من جزر (سليمان) أن يتسلل إلى هناك ليحضر له بعضه .. انطلق البحار وسط الصمت وغاب بعض دقائق ..

فجأة دوى صوت الطلقات وسقط الرجل أرضًا وهو يصرخ :

ـ « لقد أصابونى ! »

وانطلق وابل من الرصاص .. ووسط الطلقات سمعوا من يتكلم فطلب من البرتغالى أن يترجم . قال كورنيليوس :

ـ « يقولون : بين الرجل الأبيض ورجال باتوسان لا عهود ولا ثقة .. »

ـ « اللعنة ! »

وجلس الرجال مطرقى الرءوس حول النيران يصغون إلى صراخ وأنين زميلهم .. كان رجلاً قويًا لذا مات بكثير من الصخب . أحيانًا كان يصرخ وأحيانًا يأخذ فى شكوى طويلة أليمة مليئة بالهلاوس .. لم يكف لحظة ..

قال (براون) :

ـ « ما الجدوى ؟ »

وهو يرى زميله اليانكى يتأهب للنزول إلى موضع القارب . هنا دوى صوت الجريح بصوت عنيف :

ـ « ماء ! »

قال اليانكى :

ـ « نعم ماء .. الماء سيقوم بالمهمة .. إن المد يرتفع .. »

فى النهاية جاء المد .. وأسكت صرخات الألم ..

وجاء الفجر ..

الفصل السابع عشر

كان (براون) يجلس مطرقًا عندما سمع صخبًا من ناحية البلدة .. نظر إلى كورنيليوس متسائلاً فقال هذا الأخير :

ـ « لقد عاد ! »

ـ « بهذه السرعة ؟.. ولم الصخب ؟ »

ـ « إنهم مسرورون بعودته .. هو رجل عظيم لكنه طفل وسوف يموت .. »

ـ « وكيف نصل له ؟ »

ـ « هو سيأتى ليتكلم معكم .. إنه أحمق ولسوف ترون .. هو لا يخاف من أى شىء وسوف يأتى ويطلب منكم الرحيل .. »

للأسف كان يعرف جيم جيدًا فعلاً !..

ـ « يمكنك يا كابتن أن تأمر هذا الرجل طويل القامة أن يقتله .. وسوف يخاف الجميع بحيث يمكنكم عمل أى شىء بعد هذا .. تفرون لو أردتم"

كاد يرقص من نفاد الصبر واللهفة .. ونظر له براون ونظر لرجاله الذين غرقوا فى قطرات الندى والبرد .

مع الفجر رأى (براون) رجلاً أوروبيًا يضع خوذة ويلبس ثيابًا بيضاء .. فصرخ كورنيليوس :

ـ « هذا هو جيم .. أنظر !.. أنظر ! »

نظر براون .. ومن حوله احتشد الرجال بعيون زجاجية .. ماذا يفعل ؟.. نظر حوله فرأى الغابات تنذره بمنافسة غير متكافئة ..

كان هناك حشد من الأهالى يمشى حول الرجل الأبيض ، ثم تحرر الأبيض ومشى وحده .. فتقدم براون وفتح ذراعيه ولوح بهما وانتظر حتى عبر جيم منطقة الشجيرات الشوكية ، ثم هبط ليقابله عند النهير .

التقيا فى النقطة التى شهدت هروب جيم قديمًا . التقى الرجلان وبعيون ثابتة حاول كل منهما أن يفهم الآخر . من اللحظة الأولى كره براون جيم .. ليس هذا هو الرجل الذى يتمنى أن يلقاه ..

وفى سره لعن شباب الفتى وثقته بنفسه .. هذا الفتى يملك كل عناصر القوة فى صفه ولن يتخلى عن شىء .. ليس جائعًا .. ليس يائسًا .. ليس خائفًا ..

قال براون :

ـ « اسمى براون .. وما اسمك أنت ؟ »

واصل جيم الكلام كأنه لم يسمع :

ـ « ماذا جاء بكم هنا ؟ »

ـ « هذا سهل !.. الجوع .. وأنت ؟ »

قال براون فيما بعد :

« احمر وجهه ولم يرد .. كأنه أعظم من أن يتكلم . لكنى لم أخشه .. كان واحد من رفاقى يصوب بندقيته نحوه بالفعل وينتظر إشارة منى .. لا شىء يصدمك فى هذا ..

« قلت له :

ـ « نحن ميتان .. لنتفق على هذا ونتكلم .. ربما أنا فأر فى مصيدة لكن بوسع الفأر الحبيس أن يعضك عضة مروعة .. »

ـ « ليس لو اقتربت من المصيدة بعد موت الفأر .. »

قلت له إن هذه الألعاب تروق للأهالى لكن ليسَ معى .. أنا أكثر بياضًا من أن أكون فأرًا .. جئت لأتكلم معه لا لأتوسل من أجل حياتى .

ـ « ربما لا فرصة أمامنا لكن بوسعنا أن نمتعكم ببعض الألعاب الرياضية قبل أن نموت .. يمكن أن نرسل نصف مدينتكم هذه للسماء وسط النيران"

حكى لى براون هذا وهو فى فراش الموت ، فبدا لى مخيفًا ..

ـ « لن نجوب الغابات ونسقط واحدًا تلو الآخر فيلتهم النمل جثثنا .. »

قال له جيم :

ـ « أنتم لا تستحقون مصيرًا أفضل .. »

ـ « وماذا تعرف عنا لتقرر ؟.. نحن جئنا هنا من أجل الطعام .. نحن جوعى .. . أنا عشت وأنت عشت .. لكنك تتكلم كهؤلاء الناس الذين كان يجب أن يرزقوا بأجنحة حتى لا تلمس أقدامهم الأرض .. أنا لا أملك أجنحة بل قدماى على الأرض القذرة ، وأنا هنا لأننى أخاف السجن .. »

كان براون يحكى لى هذا كله على فراش الموت وقد بدا عليه النصر .. لقد عاش وهزم الجميع .. رجال الشرطة .. الرجال .. النساء .. البحارة .. هزم الحياة وبصق عليها ولم يعد يبالى بشىء ..

قال لجيم إنهم قتلوا رجلاً لكن رجلهم مات كذلك .. هم قتلوا الرجل بطلقة نظيفة فى الصدر ، بينما رجلهم ظل يتألم ويتلوى ست ساعات فى النهير حتى أغرقه المد .. لقد كان الأمر حياة مقابل حياة ..

رجلان يقفان والنهير بينهما وجثة رجل ثالث غمرها الوحل تقريبًا ..

قال جيم :

ـ « هل تعدون بمغادرة الشط وتسليم سلاحكم ؟ »

جلس براون وحملق فيه .. وقال :

ـ « نسلم سلاحنا ؟.. ليس قبل أن تأخذوها أنتم من أيدينا المتخشبة .. هل تحسبنى جننت ؟.. نحن سنبيع هذه الأشياء فى مدغشقر لو وصلنا هناك"

قال جيم وهو يبتعد :

ـ « ليكن .. ستنالون خروجًا آمنًا أو معركة نظيفة"

نهض براون وعاد إلى التل فقابل كورنيليوس .. سأله الأخير :

- « لماذا لم تقتله ؟ »

قال براون باسمًا :

- « لأن بوسعى عمل ما هو أفضل .. »

هرول كورنيليوس مبتعدًا وهو لا يجرؤ على النظر للخلف حيث أصدقاؤه الجدد ...

الفصل الثامن عشر

من هنا تحركت الأحداث بسرعة .. قوة سوداء خرجت من قلوب الرجال وكان جيم بينهم . (تام إيتام) كان بينهم وقد حكى لى القصة .. لم يحو قلبه إلا الإخلاص والولاء لسيده .. مهما ساد ضباب الحيرة فقد ظل يحمل لسيده الرعاية والطاعة ..

عاد جيم إلى الكوخ الذى كان فيه (دورامين) وظل هناك فترة مع الرجل . بعد محاورة قصيرة انطلق إلى الحصن ليقابل رؤساء باتوسان ، وتمنى (ايتام) أن يكون هناك بعض القتال .. لكن معظم سكان البلدة تمنوا أن يرحل الغرباء بلا قتال ..

كان المكان يغص باللاجئين ، حيث راحت (جوهرة) تقدم لهم الطعام وارتفعت أبخرة طهى الأرز .. الكل كان يتساءل عما ينتويه الرجال البيض .

سادت المكان بهجة عندما عرفوا أن جيم هنا .. وقد ظل مجتمعًا حتى منتصف الليل ..

قال جيم كما حكى (إيتام) فيما بعد إن هؤلاء الرجال ينتظرون رده . هم فى حالة مثيرة للشفقة أفقدتهم القدرة على التمييز بين الصواب والخطأ .. قال للمجتمعين إن خسارتهم هى خسارته

ونواحهم نواحه .. لقد عرفوا شجاعته فى القتال ، ولسنوات جربوه وعاشوا معًا .

الرجال البيض أشرار لكن مصيرهم سيكون قاسيًا كذلك . لذا هو يرى أن يسمحوا لهؤلاء البيض بالرحيل :

ـ « أنا من جربتموه وعرفتم صدقه ، يسألكم أن تتركوهم يرحلون .. »

ونظر لدورامين وقال :

ـ « فلتناد ابنك (دين واريس) يا صاحبى .. فأنا لست القائد فى هذه العملية .. »

شعر إيتام بصدمة عندما سمع هذا .. سوف يتركون الرجال يرحلون !

كان جيم كما وصفه (شتاين) بالضبط .. كان رومانسيًا .. وقد صدقه الرجال وقالوا إنه ما دام توان جيم يريد هذا فلسوف نصدع به .

لم يشك جيم قط فى نوايا براون ، لكنه خشى أن يحدث سوء فهم ما فتحدث مذبحة . وقال للفتاة وهى تحضر له الطعام :

ـ « لو حدث خطأ فلن أغفر لنفسى .. أنا مسئول عن كل روح فى هذا البلد .. »

ثم قال لها :

ـ « سوف تكونين مسئولة عن الحصن ليلة أخرى يا فتاتى العجوز .. »

كان يؤمن أنها اشجع رجل فى المكان كله !.. ولقد سألته :

ـ « هل هم أشرار لهذه الدرجة ؟ »

قال لها :

ـ « أحيانًا يتصرف الرجال بشر حقيقى برغم أنهم ليسوا أكثر سوءًا من الآخرين"

مشى جيم فى البلدة المظلمة ما عدا بعض المشاعل التى تنعكس على صفحة مياه النهر . ليلة تشبه ليالى رمضان كما قال (تام إيتام) . كان الراجا قد فر مع حريمه إلى بيت صغير خارج البلدة .. ترك قاسم وحده فى القصر فأبلغه جيم أنه بحاجة لوضع بعض رجاله خلف السياج الليلة ، لكن (قاسم) ثار لأنه يرى ضرورة احترام أملاك الراجا فى غيابه .

برغم كل شيء تقدم عشرة من رجال جيم ليعبروا السياج التى تشرف على فم النهير . وقرر جيم أن يبقوا هناك حتى يمر براون من تحتهم . طلب جيم من (تام إيتام) أن ينام ، فرقد هذا على الأرض وحاول ذلك فلم يستطع .. تظاهر بالنوم إلى أن وقف جيم جواره وقال له :

ـ « حان الوقت .. »

نهض تام إيتام على الفور .

كانت مهمة (تام) هى أن يسبق قارب براون بساعة ، كى يبلغ (دين واريس) بأن يسمح للرجال بالمرور . لم يكن جيم يثق بشخص آخر ليقوم بهذه المهمة . طلب منه (إيتام) علامة تؤكد الكلام لأهميته ..

ناوله جيم الخاتم الذى أخذه من شتاين قديمًا . وانطلق تام فى مهمته .

تلقى براون ورقة من جيم تقول :

ـ « يمكنك الرحيل ... تحرك ما إن يطفو قاربك مع مد الصباح .. فليأخذ رجالك حذرهم لأن الأشجار على جانبى النهير مليئة برجال مسلحين .. لا فرصة أمامكم .. »

مزق براون الورقة ثم استدار لكورنيليوس الذى جلبها وقال :

ـ « وداعًا يا صديقى الرائع .. »

جلس كورنيليوس جواره وقال محتجًا :

ـ « لماذا لم تقتلوه ؟.. كان بوسعكم أن تنالوا مالاً من الراجا وتستولوا على البلدة .. بالمقابل أنتم لم تظفروا بأى شيء .. »

قال براون فى حزم :

ـ « انصرف .. »

لكن كورنيليوس ركع عند قدمى براون وراح يهمس له .. حكى له عن (دين واريس) ورجاله الذين ينتظرون عند أسفل النهر . شعر براون بأنه قد خدع .. هنا قال كورنيليوس إنه يعرف مخرجًا آخر للنهر .. وراح يحكى لبراون كل ما قيل فى مجلس البلدة .. يحكيه همسًا كأنه يخشى أن يوقظ الرجال النائمين ..

قبل الفجر بساعتين عرف أهالى البلدة أن القراصنة قد بدءوا التحرك نحو قاربهم . تأهب الرجال المسلحون فى كل أرجاء باتوسان .. برغم هذا ظل السكون سائدًا كأن البلدة نائمة فى سلام .

ضباب ينتشر فوق سطح الماء فيجعل الرؤية عسيرة ، وجيم يقف بالضبط عند البقعة التى هبط فيها على باتوسان أول مرة . ومن مكان ما جاء صوته :

ـ « المجرى نظيف .. بما أن الضباب يحجب الرؤية فلتضع ثقتك بالتيار .. سوف يزول الضباب سريعًا .. »

فقال براون من القارب :

ـ « نعم .. سيزول الضباب .. »

عاد صوت جيم يدوى عبر الضباب :

ـ « سوف نرسل لكم خنزيرًا بريًا وبعض ثمار اليام .. »

ـ « افعل ذلك .. »

وسرعان ما غاب القارب فى صمت ..

على القارب كان كورنيليوس مع الرجال يقول :

ـ « سوف يأتيكم خنزير برى وبعض اليام .. سيفعل ذلك .. هو لا يقول إلا الصدق .. لكنه سرق كل ما أملكه .. »

قال براون :

ـ « أنصحك بغلق فمك وإلا ألقاك أحدهم هنا فى هذا الضباب .. »

كان من الصعب أن ترى شيئًا .. حتى الماء خارج القارب ..

ـ « تلقوننى من هنا ؟.. لكن سأعرف طريقى .. لقد عشت أعوامًا كثيرة هنا .. »

ـ « ليس بما يكفى كى ترى فى ضباب كهذا .. »

بدأ الضباب ينقشع .. . ورأى براون ظلمة دامسة كأنه يحدق فى قلب الليل نفسه . ثم ظهر غصن كبير مثقل بالأوراق فوق رأسه .

الفصل التاسع عشر

فى الوقت نفسه بلغ (تام إيتام) نهاية رحلته . أخره الضباب لكنه جدف بلا توقف ملتصقًا بالضفة الجنوبية للنهر .

من وقت لآخر يبدو ضوء النهار كبريق عبر كأس زجاجية . كان الضباب ثقيلاً فوق الماء لكن كان هناك من يراقب ، وسرعان ما برز لتام ايتام رجلان وظهر قارب .. تبادل الأخبار مع راكبيه .

كل شىء على ما يرام .. المشكلة قاربت الحل ..

واصل رحلته حتى سمع ورأى الكثير من النيران مشتعلة على الرمال . من جديد سألوه من هو فقال اسمه ..

كان معسكرًا كبيرًا والرجال يجلسون يثرثرون مع وجبة الصباح . وكانت البنادق مصفوفة فى أهرام صغيرة والرماح مغروسة فى الرمال .

طلب (تام إيتام) أن يقابل (دين واريس) . وجد صديق سيده يرقد على أريكة من البامبو ، وكان متيقظًا . ناوله تام الخاتم الخاص بلورد جيم فأخذه ودس اصبعه فيه ، ثم طلب منه أن يحكى له الأخبار .

قال له تام إن كل الزعماء وافقوا على أن يعبر الرجال البيض النهر بلا مضايقة . فكر واريس ثم صرف (تام) كى يظفر ببعض الطعام والراحة وأمره بأن يعود عند الظهيرة .

كانت الشمس تلتهم الضباب الآن .. وكان هناك من يراقب النهر منتظرًا وصول قارب الرجال البيض .

هذه هى اللحظة التى قرر فيها براون أن ينتقم من العالم الذى بعد عشرين سنة من المعاناة لم يمنحه نجاح اللص العادى . كانت شراسة عن سبق إصرار .. وقد ظل يتذكرها كذكرى عزيزة وهو على فراش الموت .

لقد أنزل رجاله فى خفة على جانب الجزيرة حيث معسكر الأهالى .. كان براون يقتاد كورنيليوس أمامه وقد قيد يديه خلف ظهره ليريهم الطريق ، ومن حين لآخر يركله ليدفعه للأمام .

انتشر رجال براون حول المعسكر فى صمت .. لم يرهم أحد .

لم يتوقع أحد أن الرجال البيض يعرفون أى شىء عن القناة الضيقة فى خلفية المعسكر . عندما أدرك براون أن الوقت حان صاح فى رجاله :

ـ « دعوهم يذوقوه !! »

فانطلقت 14 بندقية فى وقت واحد ..

كانت الدهشة عارمة حتى إن من لم يقتلوا أو يجرحوا ظلوا متصلبين وقتًا طويلاً .. ثم دوت صرخة عنيفة وراح الرجال يجرون فى كل اتجاه كأنهم قطيع ماشية مذعور . بعضهم وثب فى الماء لكن بعد الطلقة الأخيرة .. وراح براون يسب رجاله ويأمرهم :

– « صوبوا لأسفل قليلاً ! »

(تام إيتام) فهم بسرعة وارتمى على الأرض كأنه ميت . سمع واريس الطلقات فخرج راكضًا فقط ليتلقى طلقة فى جبهته .

وتراجع الرجال البيض كما جاءوا .. لم يرهم أحد ..

لقد سوى براون حسابه مع الأقدار .. لم تكن مجرد مذبحة غبية بل كانت تصفية حساب .. كانت درسًا . كانت عرضًا لطبيعتنا الأصلية التى أخشى أنها ليست بعيدة تحت السطح كما نحب أن نعتقد .

تلاشى الرجال البيض ، لكن هناك قصة عن قارب تم إنقاذه فى المحيط الهندى بعد شهر .. ثلاثة هياكل عظمية ذات عيون زجاجية ، وبينها من قال إن اسمه (براون) . مات رجلان على

ظهر السفينة البخارية التى أنقذتهم وعاش براون ليرانى ويحكى لى قصته ..

أما عن كورنيليوس فقد رآه (إيتام) يركض وسط طلقات الرصاص ويصرخ .. حاول أن ينزل قاربًا إلى الماء . هنا رأى إيتام أمامه فارتمى على الأرض وراح يركل ويصرخ كأنه دجاجة خائفة .. ثم عرف أن إيتام طعنه مرتين ، فهمدت حركته حتى مات تمامًا ..

عرف تام إيتام أنه أول من سينقل هذه الأخبار للحصن .. لقد نجا كثيرون من غارة البيض ، لكن معظمهم وثب للماء .. كانت الحقيقة المفزعة هى أنهم لا يعرفون من هاجمهم .. اعتقدوا أن هذا هجوم من رجال بيض آخرين ، وربما هى خيانة ...

الفصل العشرون

عندما بلغ تام القرية كانت النسوة أمام البيوت ينتظرن عودة قوارب (دين واريس) . وكان هناك جو من البهجة والسرور بانتهاء هذه المشكلة . كانت المتاجر مفتوحة وكذلك البوابة لكن السوق لم يبدأ بعد .

جرى تام إيتام مسرعًا .. كان أول من قابله هو الفتاة . بعينيه المتوحشتين ولهاثه وقف أمامها ثم انفجر وشفتاه ترتجفان :

- « لقد قتلوا دين واريس !.. ومعه كثيرون .. »

كانت أول عبارة قالتها هى :

- « أغلقوا البوابات ! »

كان معظم الحراس قد رحلوا لكن ايتام ركض ليأمر الباقين بالانتظار .. استوقفته وأشارت إلى البيت وهتفت وهى ترتجف :

- « دعه يخرج ! »

جرى تام ايتام إلى البيت حيث كان سيده نائمًا يتقلب على الوسادة فأيقظه .. انفجر فيه :

- « اليوم يوم شر يا توان .. يوم ملعون .. »

فتح جيم عينيه فراح الفتى يحكى له ما حدث ..

- « هل مات (واريس) ؟ »

- « أطال الله عمرك .. كانت خيانة شنيعة .. لقد خرج على صوت الطلقات وسقط أرضًا .. »

ركض جيم إلى النافذة وضربها بقبضته ، ثم بصوت هادئ أمره بأن يعد مجموعة قوارب لمطاردة الرجال .. وراح يلبس ثيابه ثم تساءل :

- « لماذا تقف هنا ؟ »

واحمر وجهه غضبًا .. فلم يتحرك (تام إيتام) .. بعد قليل قال لسيده :

- « سامحنى يا توان . لكن .. لكن .. لن يكون أى واحد من خدمك آمنًا لو خرج ومشى بين الناس ! »

فهم جيم .. لقد ترك العالم من أجل مشكلة ، والآن ها هو ذا العالم الجديد الذى صنعه لنفسه يتهاوى من فوقه . القوى السوداء تسلبه السلام مرتين .. قرر أن يتحدى الكارثة بالطريقة الوحيدة التى يمكن بها تحدى كارثة ..

جلس على المنضدة مفكرًا .. جاءت الفتاة لتكلمه فاستوقفها بإشارة من يد تأمر بالصمت .. هكذا خرجت إلى الشرفة وحدها ..

لقد خسر من جديد ثقة الرجال به ... الوحدة تحيط به من جديد ..

ظل جالسًا حيث هو حتى المساء .. ثم خرج إلى الشرفة وسأل تام ايتام :

ـ « حسن ؟ »

قال الخادم :

ـ « هناك الكثير من البكاء والنحيب .. والغضب .. »

ثم أضاف :

ـ « من يدرى يا توان .. ربما بالحيلة قد نقدر على الفرار .. الرجال خائفون .. »

ثم غادر الغرفة .. ظلت الفتاة معه ساعة .. كان الحزن يرفع روحه فوق أسوار وجوده ذاتها .. قالت له باكية :

ـ « قاوم ! »

كانت الشمس تغرب عندما عاد الرجال بجسد (دارين واريس) لبيت (دورامين) . ووقفت الأم حاملة ملاءة بيضاء لتلقى بها جسد ابنها الوحيد .

وقف دورامين أمام جثة ابنه بينما أغصان أشجار الفاكهة تحتك فوق رأسه ، وسقط فكه على صدره . كشفوا الملاءة عن جسد الفتى فراح الأب يتفحصه بعناية كأنه يفتش عن شىء سقط منه على الأرض ، ربما يبحث عن الجرح .

كان الجرح فى الجبين .. صغيرًا جدًا ..

مـد أحدهـم ينـزع الخـاتم مـن اصـبع (واريس) فتعـالت الشـهقات عنـدما عـرف الناس هـذا الشـىء . شـهق دورامين وأطلق صرخة ألم عنيفـة كأنه ثور جريح أثارت الرعب فى قلوب الواقفين .

على الفور بدأت النسوة يصرخن ويولولن بينما وقف عجوزان يتلوان القرآن بصوت عال رخيم .

فى الوقت ذاته جلس جيم جوار النهر يرمق الماء ، ثم التفت لتام إيتام وقال :

ـ « حان وقت إنهاء هذا .. »

سأله الخادم فى دهشة :

ـ « توان ؟ »

لم يرد جيم فسألته الفتاة :

ـ « هل ستقاتل ؟ »

ـ « لايوجد شىء أقاتل من أجله .. »

ـ « هل ستهرب ؟ »

ـ « لا مهرب .. »

ـ « هل سترحل ؟ »

هز رأسه أن نعم فصرخت :

ـ « أنت وعدتنى بألا تفعل .. أنـت كـذوب أو مجنـون .. قلـت إنك لن ترحل أبدًا .. هل تذكر ؟ »

وبكت على كتفه .. والسماء فوق باتوسان كانت حمراء بلـون الدم . والشمس تشتعل فوق قمم الأشجار .. تعلقت به بقوة فأمر تام إيتام بأن ينتزعها منه ، وبسرعة هرع إلـى قـارب فـى المـاء ووثب فيه بينما هرعت الفتاة تحاول اللحاق به باكيـة ، وسـقطت على ركبتيها ..

لكنه كان يبتعد واقفًا فى القارب والمجداف فى يده ..

صرخت :

ـ « أنت كذاب ! »

- « سامحينى .. »

- « لن أفعل !.. أبدًا ! »

وثب تام ايتام فى القارب فلم يرق له أن يجدف سيده وهو موجود ، لكن لما اقترب القارب من بيت دورامين أصر جيم أن يعود خادمه ويتركه وحده .

كان الظلام قد هبط والمشاعل هنا وهناك .. كل من رأى جيم تنحى جانبًا وسمح له بالمرور . لا أعرف سبب الزحام وقتها .. هل كان تحسبًا لهجوم آخر أم للانتقام أم ماذا ؟.. فقط كانوا يخشون هؤلاء البيض الملتحين القتلة ، ولم يفهموا قط علاقة جيم بهم .

كان دورامين جالسًا وعلى ركبتيه غدارتان . عندما رأوا جيم تعالت الهمسات وانتحوا يمينًا ويسارًا ليسمحوا له بالمرور ..

توقف صراخ النساء فجأة .. ولم يرفع دورامين رأسه بينما جيم يقف أمامه .. ثم مشى نحو اليسار حيث كانت الأم تجلس جوار جثة ابنها وشعرها يغطى وجهها .. رفع الملاءة ليلقى نظرة أخيرة على وجه صديقه ثم أسدلها ونهض ..

- « لقد جاء .. لقد جاء ! »

- « لقد تحمل المسئولية على رأسه .. »

استدار جيم نحوهم وقال :

- « نعم .. على رأسى .. »

ثم قال لدورامين :

- « أنا جئت متأهبًا وغير مسلح .. »

تدحرج الخاتم من أنامل دورامين إلى الأرض ليسقط عند قدمى جيم ، وحاول العجوز أن يتكلم فلم تخرج إلا اصوات مختلطة مبهمة من حلقه .

نظر دورامين لجيم بمزيج من الحزن والغضب والجنون .. ثم رفع الغدارة وأفرغ رصاصة فى صدر صديق ابنه .

نظر الرجل الأبيض لليمين واليسار بلا أى تعبير على وجهه ثم سقط ميتًا ..

تلك هى النهاية .. غاب تحت سحابة .. غامضًا قلبه .. منسيًا .. رومانسيًا ..

ما كان ليحلم بنهاية كهذه فى طفولته .. لقد رأى فى تلك اللحظة الفرصة التى جاءته كعروس شرقية تتوارى خلف النقاب ..

لقد انتزع نفسه من امرأة حية حقيقية كى يزف نفسه إلى مثله الأعلى . فهل هو راض الآن ؟.. من المفترض أن نعرف فقد كان دومًا واحدًا منا ..

أحيانًا أتذكره بقوة جامحة برغم أنه لم يعد موجودًا .. و هناك لحظات يمر فيها أمام عينى كروح تحررت من جسدها .. متأهبًا ليسلم نفسه لعالم الظلال ..

من يعرف ؟..

الفتاة البائسة تعيش حياة الصمت فى دار (شتاين) .. لقد شاخ شتاين كثيرًا وهو يدرك هذا .. ويقول كثيرًا إنه متأهب لترك هذا كله .. متأهب للرحيل ..

يقولها وهو يلوح محزونًا لمجموعات الفراش التى جمعها .

جوزيف كونراد يوليو 1900

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب





لورد چيم

عندما نخطئ يكون علينا أن ندفع الثمن ، وقد ارتكب لورد جيم فى شبابه خطأ مروعًا وصمه بالعار طيلة حياته ، وكان عليه أن يمضى بقية أيامه محاولًا أن يفر إلى أصقاع لا تذكر شيئًا عنه ، وأن يغسل هذا العار عنه ..

إلا أن ثمن الغسيل كان فادحًا وقاسيًا ..

ماذا فعله اللورد (جيم) ؟ .. إن (جوزيف كونراد) الأديب البولندى الكبير يعرف الإجابة ، وسوف نسمعها منه فى هذه الرواية الممتعة المهمة ...

العدد القادم

ماتيلـدا

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الامريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



